تاريخ التصوف في وسط آسيا

د. طارق أحمد شمس



قليلة هي الدراسات العربية التي أتت على تاريخ وسط آسيا، وقد يعود ذلك إلى قلة الاهتمام بتاريخ هذه البلاد العريق، أو عدم إتقان لغتها، أو لكون بعضها كان جزءاً من الاتحاد السوڤياتي السابق.

وإذا عدنا إلى تاريخ تلك البلاد التي يطلق عليها اسم «تركستان»، لوجدنا أنها كانت تملك حضارة عريقة ومتنوعة الينابيع، فهي متأثرة بالحضارة الصينية من جهة وبحضارة خراسان من جهة أخرى، كما أنها تحمل الكثير من الخصائص الديموغرافية السكانية المتنوعة.

هذا عدا عن كونها كانت ممراً للقوافل التجارية، فربطت بين الصين، وأسواق المشرق العربي وأوروبا، وهو ما عرف حينها بطريق الحرير.

هذه المنطقة المميزة جغرافياً، والتي تضمُّ بعض أبرز المدن العريقة: «سمرقند، بخارى...» شهدت ظهور حركة التصوف بعد دخول الإسلام إليها عام ١٨هـ/٦٣٩م، وذلك للخصائص السمحة التي تحملها الطرق الصوفية من إيمان وأخلاق، ودعوتها إلى الرضى والسكينة والأمان.

د. طارق أحمد شمس، مواليد النبطية - لبنان.

- أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية - اختصاص في التاريخ الوسيط.

- له العديد من الأبحاث المنشورة في مجلات لبنانية وعربية.

صدر له:

- **العولمة بين التاريخ والجغرافيا، بالمشاركة مع د. سعيد عبدالرحمن، دار العودة، ٢٠١٥.**
- **الدولة في فكر الطوسيين، دار العودة، ٢٠١٥.**
- **تاريخ الأقليات في المشرق العربي، بالمشاركة مع د.سعيد عبدالرحمن ود.يوسف كيال، دار الفارابي، ٢٠١٦.**



د. طارق أحمد شمس

تاريخ التصوف في وسط آسيا

دار الفارابي

الكتاب: تاريخ التصوف في وسط آسيا
المؤلف: د. طارق أحمد شمس
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: نيسان ٢٠١٦
ISBN:978-614-432-554-4

المحتويات

المقدمة

قليلة هي الدراسات العربية التي أتت على تاريخ وسط آسيا، وقد يعود ذلك إلى قلة الاهتمام بتاريخ هذه البلاد العريق، أو عدم إتقان لغتها، أو لكون بعضها كان جزءاً من الاتحاد السوفياتي السابق.

وإذا عدنا إلى تاريخ تلك البلاد التي يطلق عليها اسم «تركستان»، لوجدنا أنها كانت تملك حضارة عريقة ومتنوعة الينابيع، فهي متأثرة بالحضارة الصينية من جهة وبحضارة خراسان من جهة، أخرى، كما أنها تحمل الكثير من الخصائص الديموغرافية السكانية المتنوعة.

هذا عدا عن أنها كانت ممراً للقوافل التجارية، فربطت بين الصين، وأسواق المشرق العربي وأوروبا، و هو ما عرف حينذاك بطريق الحرير.

هذه المنطقة المميزة جغرافياً، والتي تضمُّ بعض أبرز المدن العريقة: «سمرقند - بخارى...» شهدت ظهور حركة التصوف بعد دخول الإسلام إليها عام ١٨ هـ/ ٦٣٩ م، وذلك للخصائص السمحة التي تحملها الطرق الصوفية من إيمان وأخلاق، ودعوتها إلى الرضى والسكينة والأمان.

ومع تزاحم الناس أمام أبواب المتصوفة، سارع الحكام والأمراء في بلاد ما وراء النهر إلى تبني هذه الطرق، وتقريب رجال المتصوفة،

والتتلمذ على أيديهم، ما رفع من شأن رجال الصوفية، فبلغوا المراكز العليا داخل الدولة.

هذا يدفع إلى طرح الإشكالية الآتية:

ما هي الظروف التي ساعدت على انتشار التصوف في وسط آسيا؟.

من هم أبرز المتصوفة الذين عرفوا في تلك البلاد؟.

ولا بدَّ في طبيعة الحال من أن نأتي على تعريف بلاد ما وراء النهر، مع أبرز مدنها، و الإمارات التي حكمتها.

إن هذه الدراسة لم تكن سوى لتسد حاجة القارئ إلى المعرفة بطرق الصوفية المتأثرة بمدارس وسط آسيا، والتي يصعب الحصول على المعلومات الكافية حولها، وهو ما عانيته من خلال جمعي للمادة المطلوبة، لندرة الدراسات العربية حول هذا الموضوع من ناحية، ولأن معظم ما كتب عن هذه البلاد كان من قبل الرّحالة الغربيين ومعظمه لم يترجم وهي كتب يصعب العثور عليها.

وتتوزع هذه الدراسة على ثلاثة فصول:

١- **الفصل الأول**: جغرافية بلاد ما وراء النهر وأبرز مدنها.

٢- **الفصل الثاني**: دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر، وأبرز الأسر الحاكمة.

٣- **الفصل الثالث**: الطرق الصوفية في بلاد ما وراء النهر.

آملاً أن أكون قد حققت من خلال هذه الدراسة الغاية التي سعيت إليها، والله وليّ التوفيق.

طارق أحمد شمس

الفصل الأول

جغرافية بلاد ما وراء النهر
وأبرز مدنها

أ - التسمية

بلاد «ما وراء النهر»، هي البلاد التي تقع بين نهري جيحون (أموداريا) Amu-Darya وسيحون (سيرداريا) Sir-Darya، حسب التسمية العربية[1]، وهو الاسم الذي عُرف عند الجغرافيين العرب، ووصفوه على الشكل الآتي:

- الإصطخري (ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م)، في مسالك الممالك

«ما وراء النهر من أخصب أقاليم الإسلام وأنزهها وأكثرها خيراً وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير واستجابة لمن دعاهم إليه، مع قلة غائلة، وسلامة ناحية، وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدة شوكة ومنعة وبأس وعُدة وآلة وكراع وسلاح...»[2].

- ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، في صورة الأرض

«وما وراء النهر إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلة وأنزهها وأكثرها خيراً...»[3].

---

(١) فاسيلي بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت: المجلس الوطني للثقافة، ط١، ١٩٨١، ص ١٤٥.

(٢) الإصطخري، مسالك الممالك، بيروت: دار صادر، د.ت، ص ٣٨٦-٣٨٧.

(٣) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢، ص ٣٨٤.

- المقدسي (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م) في أحسن التقاسيم في ذكره لنهر «جيحون» يورد:

«... وعليه كور جليلة ومدن عدة...»[(١)].

وفي ذكره لإقليم المشرق، الذي جعله المقدسي إقليماً واحداً يقول: «أجلُّ الأقاليم وأكثرها أجلّة»[(٢)].

- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م) في كتاب معجم البلدان

«.. وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيراً... فأما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ويتعاظم عن أن يكون في جميع بلاد الإسلام وغيرها مثله..»[(٣)].

بينما لم يرد إقليم «ما وراء النهر» بهذا الاسم عند بقية الجغرافيين على سبيل المثال:

- ابن خرداذبة (ت ٢٨٠ هـ/ ٨٩٤ م) في المسالك والممالك

يذكر أن المنطقة الممتدة من خراسان وصولاً إلى «كابل من ثغور طخارستان»، بما فيها من المدن الكبرى: بُخارى، سمرقند، فرغانة، وقد أُطلق عليها اسم «المشرق»[(٤)].

وقد أوضح أهمية «بلاد ما وراء النهر»، من خلال ذكره لمدينة

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٧، ص ٢٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٢.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، ط٢، د.ت، ج٥، ص ٤٥.

(٤) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨، ص ٣١- ٤٥.

سمرقند بوصفه إياها قائلاً: «... وأنزهها وأجمعها طيباً وحسناً متشرف سمرقند...»[1].

وفي ذكره لما يرفع من أموال من بُخارى، (الخراج) ذكر: «ووراء النهر بُخارى ولها قهندز ألف ألف ومئة ألف وتسعة وثمانون ألفاً ومئتا درهم».

- اليعقوبي: (ت بعد ٢٩٣هـ/٩٠٥م) في كتاب البلدان

ذكر بلاد ما وراء النهر باسم «تركستان»[2]، والجدير ذكره أن اسم «تركستان» عند العرب كان يقصد به بلاد الترك بشكل عام التي في ما وراء النهر[3].

وأتى اليعقوبي على ذكر بعض مدنها، وأبرزها: «وبُخارى بلد واسع فيه أخلاط من الناس من العرب والعجم ولم يزل شديد المنعة... وخراج البلد يبلغ ألف ألف درهم...»[4].

أما سمرقند، فوصفها قائلاً: «... وسمرقند من أجل البلدان وأعظمها قدراً وأشدها امتناعاً وأكثرها رجالاً وأشدها بطلاً وأصبرها محارباً...»[5].

---

(١) ابن خرداذبة، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(*) قهندز: كهندز ومعناه القلعة العتيقة، ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤١٩.

(٢) اليعقوبي، كتاب البلدان، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، ١٨٩٣، ص ٣٦٩.

(٣) بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٤) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص ٣٩٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٩٣.

- **ابن رستة (ت ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣م)، في كتاب الأعلاق النفيسة** جعل بلاد ما وراء النهر من ضمن ما أطلق عليه اسم «إيرانشهر»، التي كانت تضم «بلاد خراسان وسجستان وكرمان وفارس والأهواز والجبل وآذربيجان وأرمينية والموصل والجزيرة والشام وسورستان»، وجعل بُخارى وسمرقند وكيش وفرغانة وغيرها من مدن بلاد ما وراء النهر ضمن كور(*) خراسان(١).

- **ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في كتابه معجم البلدان**

«...وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيراً... فأما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ويتعاظم عن أن يكون في جميع بلاد الإسلام وغيرها مثله...»(٢).

- **ويورد المستشرق الروسي بارتولد**: «إن الحدود السياسية بين إيران وتوران(*) كانت عرضة لتغيرات عديدة على مر العصور التاريخية، في عهد الهخامنشيين(**) مثلاً، وفي عهد السيادة العربية كذلك، كانت جميع بلاد ما وراء النهر تكوّن جزءاً لا يتجزأ من الشرق الأدنى، ولكن ابتداءً من القرن العاشر الميلادي وقعت المنطقة نهائياً

(*) كور: جمع كورة، وهي كل صقع يشتمل على عدة قرى ولاية لتلك القرى من قصبة أو مدينة، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٣٦ -٣٧.

(١) ابن رستة، كتاب الأعلاق النفيسة، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، ١٨٩٣، ص ١٠٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، ط٢،د.ت، ج٥، ص ٤٥.

(*) توران: يقصد بها بلاد ما وراء النهر بأجمعها، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٥٧.

(**) الهخامنشيين: يقصد بها سلالة الفرس الأخمينيين.

تحت سيطرة شعوب آسيا الوسطى...» وأصبح نهر أموداريا (جيحون) هو «الحد الفاصل بين محيط نفوذ كل من الطرفين»[1].

ويضيف بارتولد أن بلاد ما وراء النهر، كانت تقطنها في البداية شعوب آرية تسربت إليها أعداد غفيرة من العناصر التركية، لتصبح هذه البلاد ذات أغلبية تركية[2].

ولذلك عرَّف الجغرافيون تلك البلاد المعروفة باسم تركستان على الشكل التالي: «تركستان منطقة واسعة في وسط آسيا، ويقصد بها بلاد الترك، إذ كانت مجال انتقالهم ومواطن قبائلهم، وهي منطقة سهلية في الغرب وهضبية في الشرق، وبينهما منطقة جبلية عالية ضمن البلاد التركستانية، تغذي كلا الطرفين بالمياه وتصل بينهما بممراتها الشهيرة[3] وقد قسمت إلى قسمين:

تركستان الشرقية، وهي تخضع حالياً للصين.

تركستان الغربية، وقد قُسمت إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وطاجكستان، وقازاقستان، وتركمنستان، وقيرغيزيا[4].

وقد اقتصر إطلاق اسم تركستان عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى على تركستان الشرقية، وأطلق على

---

(١) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) محمد علي البار، المسلمون في الاتحاد السوفياتي عبر التاريخ، جدة: دار الشروق، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

تركستان الغربية اسم بلاد ما وراء النهر، وهو نهر جيحون، وحددت هذه البلاد في المنطقة الواقعة بين نهري سيحون (سيراداريا) شرقاً وجيحون (أموداريا غرباً)[1].

ولما كانت خراسان تعتبر مركزاً لانطلاق المسلمين نحو تلك البلاد، من عاصمتها «مرو»، فقد اتبعت بلاد ما وراء النهر إلى خراسان، واعتبر عامل خراسان مسؤولاً من قبل الخليفة عن بلاد ما وراء النهر[2].

وعند العودة إلى الجغرافيين والبلدانيين المسلمين يظهر بوضوح أن اسم تركستان عندهم إنما أطلق على المنطقة الشرقية منها:

فعند ياقوت وفي تعريفه لتركستان يقول: «هو اسم جامع لجميع بلاد الترك... وحدُّهم الصين والتبت والخرلخ والكيماك والغز... وأول حدهم من جهة المسلمين فاراب.. ومدائنهم المشهورة ست عشرة مدينة...»[3].

أما القزويني فيعرّف تركستان بقوله: «اسم جامع لجميع بلاد الترك... وأكثرهم أهل الخيام، ومنهم أهل القرى... ممتازة عن جميع الأمم بكثرة العدد، وزيادة الشجاعة والجلادة وصورة السباع، عراض الوجوه، فطس الأنوف، عبل السواعد، ضيقو الأخلاق، والغالب عليهم الغضب والظلم والقهر وأكل لحوم الحيوانات، لا يريدون

---

(١) محمد علي البار، المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣.

لها بدلاً، ولا يراعون فيها نضجاً، ولا يرون إلا ما كان اغتصاباً كما هي عادة السباع، وليس عيشهم إلا من غارة أو طلب ظبي نافر أو طير طائر...»[١].

١- تعريف نهر جيحون

نظراً إلى كون مصطلح «بلاد ما وراء النهر» أورده المؤرخون والجغرافيون المسلمون على المنطقة الممتدة بين نهري جيحون في الجنوب وسيحون في الشمال[٢]، فلا بُدّ من أن نأتي على ذكر هذين النهرين من خلال ما أورده بعض هؤلاء الجغرافيين والبلدانيين.

أما نهر جيحون فقد ورد عند:

- **ابن خرداذبة**[٣]، **في المسالك والممالك**، فهو يظهر أن مخرج نهر جيحون «نهر بلخ من جبال التُّبب[*] ويمرُّ ببلخ... والترمذ... وآمل... وخوارزم حتى يصب في بحر جرجان[*]».

- **ابن رستة، في كتاب الأعلاق النفيسة**: «ومخرج جيحون من بلاد التبت يقبل من المشرق مع الصبا فيمر ببلاد وخان...ثم يصير إلى أعلى حدود بلخ... ثم ينعطف إلى ناحية الشمال مع الجنوب

---

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر، د.ت، ص ٥١٤.

(٢) بديعة محمد عبد العال، النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الأتراك، القاهرة: الدار الثقافية، ط١، ٢٠٠٩، ص٩.

(٣) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص ١٤٩.

(*) جبال التبب: يقصد بها جبال التبت.

(*) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبريا وخراسان - ياقوت، معجم البلدان، ج٢ ص١١٩.

إلى أن يصير إلى الترمذ... ثم إلى آمل ثم إلى خوارزم فيمرُّ بمدينتها فإذا انحدر من المدينة انشعبت منها أنهار وفيوض ذات اليمين وذات الشمال فصارت منها بطائح وآجام ومروج أسفل من مدينة خوارزم... وينصب في جيحون أنهار عدة...»[1].

- **الإصطخري، في مسالك الممالك**: «فأما جيحون فإن عموده نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخّان[*]... فيجتمع إليه أنهار في حدود الختَّل والوخش فيصير منه هذا النهر العظيم»[2].

كما ويأتي على ذكر المدن التي يمُر فيها، وهي التي وردت سابقاً.

- **المقدسي، في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: يورد «ووجدتُ في كتاب بالبصرة أربعة أنهار من الجنة في الدنيا: «النيل وجيحون والفرات والرسَّ..»[3].

وفي موضع آخر يورد أن «أخفّ المياه عشرة، دجلة والفرات وجيحون...»[4].

ثم يعود فيأتي على ذكر نهر جيحون وأهميته: «هذا نهر يشق الإقليم (إقليم المشرق)، ويفيض في بحيرة خوارزم، وعليه كور

---

(١) ابن رستة، كتاب الأعلاق النفيسة، المصدر السابق، ص ٩١-٩٢.

(*) مقاطعة وخاّن، وهي مقاطعة معروفة بصعوبة المسلك - بارتولد، ص ١٤٧.

(٢) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٩٦.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المصدر السابق، ص ٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

جليلة ومدن عدّة، وينشعب منه أنهار كثيرة ويقلب إليه الأنهار الستة»، بعدها يأتي على ذكر الكور التي يمرُّ بها هذا النهر[1].

- ويتوسع ياقوت الحموي في معجمه بذكر نهر جيحون وأصل التسمية: «... سمي بذلك لاجتياحه الأرضين...».

ثم ينقل أن «أصل اسم جيحون بالفارسية هرون، وهو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان، فنسبه الناس إليها وقالوا جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ»[2].

أما الاسم الآري القديم لنهر جيحون فهو، كما أورده بارتولد «فخشو أو وكشو»[3].

وقد أطلق اسم «طخارستان» على المقاطعات التي تقع على ضفتي نهر جيحون، وكانت قصبتها الاقتصادية مدينة بلخ، أما المناطق الجبلية في المجرى الأعلى لنهر جيحون فأطلق عليها اسم طخارستان العليا[4].

٢- نهر سيحون

نهر سيحون من الأنهر الكبيرة التي ورد ذكرها عند الجغرافيين والبلدانيين العرب، وأبرزهم:

- ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٦.

(٣) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٤) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، المصدر السابق، ص ٩٣.

«نهر سيحون الآخذ على بلاد فرغانة، ويمده نهر الشاش، ويخرج إلى حائط عبدالله بن حميد حتى يصب في بحر طبرستان»[1].

- المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، في المواعظ والاعتبار.

حيث جعل من نهر سيحون مع الأنهار المباركة التي تأتي من أرض الجنة بقوله: «وقد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب التي وراء البحر المظلم، وهي: سيحون وجيحون والفرات والنيل، وأن تلك الأرض من أرض الجنة، وأن تلك القبة من زبرجد، وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور»[2].

ويضيف المقريزي في موضع آخر محدداً جهة كل من سيحون وجيحون قائلاً: «سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ..»[3].

والجدير ذكره أن نهر سيحون ورد عند ابن حوقل باسم «نهر الشاش»: «وهو نهر عظيم ويعظم من أنهار تجتمع إليه في حدود الترك والإسلام وتجتمع إليه عدة أنهر ليصل بعدها إلى بحيرة خوارزم».

---

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٣، ج١، ص ١٢١.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ ج١، ص ٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٥٧.

ويضيف ابن حوقل أنه «إذا امتدّ يكون نحو ثلثي جيحون»[1]، ويقع على ضفة النهر إقليم فرغانة[2].

والجدير ذكره أن نهر سيحون، حسب الإصطخري وابن حوقل، عموده نهر قراداريا الذي يعتبر المنبع الأساسي لنهر سيحون.

أما النهر الثاني الذي يصب فيه ويغذيه، فهو «خيلام أو نارين»، وأطلق على الجزء الواقع بين قراداريا وخيلام اسم «ميان روذان»، ومعناها: ما بين النهرين. هذه المنطقة كانت الحد الفاصل بين أملاك المسلمين في وسط آسيا وبلاد الترك[3].

أما ياقوت فقد عرّف سيحون: «... نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند، يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل، وهو في حدود بلاد الترك»[4]. وهكذا، فإن نهر سيحون ينبع من مرتفعات بامير في الشمال، ويصب فيه نهر قراداريا، كما نهر خيلام (يسمى حالياً نارين)، ثم يتجه غرباً نحو مدينة خوقند، بعدها يمر بعدة مدن ليصل إلى طشقند شمالاً، ويصب في بحيرة خوارزم (بحر الآرال)[5].

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص ٤١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(٣) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٤.
- ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص ٤٢٠.
- بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٩٤.

(٥) محمد علي البار، المسلمون في الاتحاد السوفياتي عبر التاريخ، جدة: دار الشروق، ط١، ١٩٨٣، ج١، ص ٢٤١- ٢٤٢.

خراج بلاد ماوراء النهر

أما خراج تلك البلاد، التي وضعها قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)، من ضمن أعمال خراسان، فهي:

«وارتفاع خراسان على ما كان فورق عليه عبدالله بن طاهر لسنة (٢٢هـ/ ٨٣٥م)، مع ثمن السبي والغنم والكرابيس، ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم»[1].

آسيا الوسطى

أما مفهوم «آسيا الوسطى»، فيورد بارتولد في تعريفه: «آسيا الوسطى شبه منحرف تحدّه من الجنوب جبال الهملايا، ومن الجنوب الغربي هضبة البامير، ومن الغرب جبال تيان شان، ومن الشمال الآلتاي، ويابلونوي، وستانوفوي، ومن الشرق جبال كبخان وكوكونور».

وتبلغ مساحتها حوالى ستة ملايين كيلو متر مربع.

«وهي في مجموعها سلسلة من الجبال والهضاب والمنخفضات»، وأبرز العناصر التي تسكنها: «بالاضافة إلى الصين، العنصر التركي والمغولي»[2].

---

(١) قدامة بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨، ص ٦٣.

(٢) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٧.

ب- أبرز المدن التي اشتهرت في بلاد ما وراء النهر

بلاد ما وراء النهر، أو تركستان، أو آسيا الوسطى، عرفت العديد من المدن الكبرى والغنية التي شهدت أحداثاً تاريخية بارزة في التاريخ الإسلامي، وقد تحولت بعض هذه المدن إلى عواصم كبرى شهدت حروباً للسيطرة عليها بين كبار قادة ذلك الزمان، كما عانت الكثير من التدمير والتخريب على أيدي المغول في العصور الوسطى.

أما أبرز تلك المدن فهي:

١- أنديجان = أندوكان - أندكان عند ياقوت: «هي من قرى فرغانة»[١]، ويذكر أن أنديجان كانت تضم آثاراً إسلامية، على الرغم من أن المسلمين افتتحوها في القرن التاسع للميلاد فإن هذه الآثار كانت تعود إلى زمن سبق دخول الإسلام إليها[٢].

وكانت أنديجان تتبع كورة نسيا السفلى، التي ضمت بالإضافة إلى أنديجان، زندراش ومرغينان وبرنك واشتيقان[٣].

وينسب إليها أبو حفص عمر بن محمد بن طاهر الأندكاني الصوفي[٤].

٢- أوزجند - أوزكند - يوزكند

ذكرها الإصطخري: «وأوزكند آخر مدن فرغانة مما يلي دار

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج١، ص ٢٦١.

(٢) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٤) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٦١.

الحرب ولها سور وربض وقلعة ومياه جارية وبساتين، وليس بما وراء النهر أكبر من قرى فرغانة، ربما بلغت القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومزارعهم»[1].

ويتوسع المقدسي في وصفها فيقول: «على بابها نهر يخاض ليس له جسر، يحيط بربضها حائط، ومدينتها عامرة فيها الأسواق والجامع والقهندز والماء يدخل إلى الجميع، ولها أربعة أبواب، ولا أعلم في مدن هذه الكورة قهندزاً غيره»[2].

يضيف ياقوت إلى ما ورد قوله: «وإليها متجر الأتراك... ينسب إليها جماعة، منهم: علي بن سليمان بن داود الخطيبي أبو الحسن الأوزكندي»[3].

٣- أوش

عرَّفها الإصطخري، حيث اعتبرها ثالث مدن فرغانة من حيث المساحة قائلاً: «مدينة أوش وهي عامرة مسوّرة بها قلعة ودار إمارة وهي ملاصقة للجبل الذي عليه مرقب الأحراس على الترك[4].

والمقدسي وصفها بقوله: «كثيرة الأنهار لها فضائل وهي رحبة منعمة، جامعها وسط الأسواق، قريبة من الجبل كثيرة الخير واسعة المياه وبها رباط عظيم يقصده المطوّعة من كل جانب»[5].

---

(١) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص٢١٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج١، ص ٢٨٠.

(٤) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢١٨.

وأضاف إليه ياقوت: «وهي خصبة جداً» كما نسب إليها ياقوت: «عمر بن موسى الأوشي» و«عمران ومسعود ابنا منصور الأوشي الفقيه» وغيرهما[1].

٤- بُخارى

وردت مدينة بُخارى عند المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين ومن أبرز هؤلاء:

ابن خرداذبة: «ولبُخارى قهندز ولها من المدن: كرمينية وطواويس وبمجكث ووردانة وبيكند»[2]، ويحدد خراجها نسبة إلى قهندزها بـ «ألف ألف ومئة ألف وتسعة وثمانون ألفاً ومئتا درهم»[3] وهي نسبة كبيرة دالة على غنى المدينة وما يتبعها من المدن والقرى.

- **ابن رستة**: «وبُخارى بلد واسع فيه أخلاط من الناس من العرب والعجم... وخراج البلد... يبلغ ألف ألف درهم»[4].

- **الإصطخري**: اعتبر بُخارى أول الكور في ما وراء النهر بعد نهر جيحون، وكانت في زمانه دار إمارة خراسان. ويصفها قائلاً: «فهي مدينة في مستوى، وبناؤها خشب مشتبك ويحيط بناءها قصور وبساتين وسكك وقرى... ويحيط بجميع ذلك سور يجمع هذه القصور والأبنية والقرى والقصبة، فلا يرى في أضعاف ذلك كله مفازة، ولا خراب، ومن دون هذا السور على قصبة المدينة وما يتصل بها من القصور

---

(١) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٨١.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٤) ابن رستة، كتاب الأعلاق النفيسة، المصدر السابق، ٢٩٢.

والمساكن والمحال والبساتين التي تعد مع القصبة ويسكنها من يكون في جملة القصبة شتاءً وصيفاً، سور آخر، قطره فرسخ(*)، ولها مدينة داخل هذا السور يحيط بها سور حصين ولها قلعة خارج المدينة تتصل بها مقدار مدينة صغيرة، وفي داخلها قلعة أخرى، ومسكن ولاة خراسان من آل سامان في هذه القلعة، ولها ربض ومسجد الجامع على باب القلعة... وحبسها في القلعة وأسواقها في ربضها».

ويضيف الإصطخري مظهراً أهمية بُخارى: «وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكاً من بُخارى ولا أكثر أهلاً على قدرها»[1].

ثم يأتي على ذكر نهر «السغد» الذي يمر في المدينة من خلال ربضها وأسواقها ليصل إلى الطواحين والضياع والمزارع المحيطة بها[2].

- المقدسي في ذكر الخصائص من الأقاليم، اعتبر أنه ليس أحسن من أهل حمص وبُخارى[3] وأنها من أطيب البلدان[4].

ويصفها قائلاً: «أما بُخارى فإنها كورة غير واسعة الرقعة، إلا أنها عامرة حسنة، يدور على خمس من مدنها حائط سعته اثنا عشر

(*) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال- المعجم الوسيط، أستنبول: المكتبة الإسلامية، د.ت، ص ٦٨١.

(١) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٠٥- ٣٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٣.

فرسخاً في مثله، ليس فيه أرض بائرة، ولا ضيعة عطلة، اسم قصبتها نموجكت». ثم يعدد مدنها ويضيف أن لها ستة عشر ألف قرية[١] وهي دار المملكة وموضع الدواوين[٢].

أما القزويني (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، فأورد في ذكر بُخارى: «بخارى مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، قديمة، طيبة... ولم تزل بخارى مجمع الفقهاء ومعدن الفضلاء، ومنشأ علوم النظر... وكانت الرئاسة في بيت مبارك ونسبهم إلى عمر بن عبد العزيز، وتوارثوا تربية العلم والعلماء كابراً عن كابر... ولم تُر مدينة كان أهلها أشد احتراماً لأهل العلم من بخارى»[٣].

وقال ياقوت في وصفها: «من أعظم مدن ما وراء النهر وأصلها... ولا شك أنها مدينة قديمة نزهة كثيرة البساتين واسعة الفواكه جيدتها»[٤].

«ويضيف... وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكاً من بخارى ولا أكثر أهلاً على قدرها»[٥].

لقد كانت بخارى ومن خلال ما ظهر من الكتب الجغرافية، من أعظم مدن ما وراء النهر والعالم الإسلامي أيضاً، فقد لعبت

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر، د.ت، ص ٥٠٩ - ٥١٠.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٥٣.

دوراً بارزاً، نظراً إلى موقعها الجغرافي، كسوق رئيسية مرّ فيها طريق الحرير، فربطت بين تجارة الصين وأسواق آسيا الغربية، وهي نظراً إلى ذلك، عرفت مصانع الحرير والمنسوجات المختلفة المصنوعة من القطن، كما اشتهرت بصناعة الأبسطة ومصنوعات الفضة والذهب، كما كانت مركزاً للصيرفة استبدل فيها تجار آسيا الشرقية والغربية «السكة»[1].

أما أصل التسمية فهو مشتق من بخار وهو العلم بلسانهم، نظراً إلى ما عرفته من علماء وحكماء[2].

كما يعتقد أن الاسم مشتق من قيهارا وهي كلمة سنسكريتية بمعنى الدير، نسبة إلى معبد بوذي كان فيها منذ ما قبل الإسلام[3].

خرج منها العديد من العلماء، منهم الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) وابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) وغيرهما[4].

٥- ترمذ

ذكرها المقدسي قائلاً: «هي أجلُّ مدينة على جيحون، نظيفة طيبة أحد العرصات، مفروشة أسواقها بالآجر، والماءُ يسطع جانبيها ويقلع المراكب إليها من كل جانب، وعليها حصن ولها

---

(١) أرمينوس فامبري، تاريخ بخارى، ترجمة أحمد محمود الساداتي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، د.ت، ص ٢٥.

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، مصر: عين للدراسات، ط١، ٢٠٠٤، ص ٢٨.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٥- ٣٥٦.

قهندز والجامع في الحصن والقهندز خارج منه له باب، وللمدينة ثلاثة أبواب، ولها ربض وسرادقات وهي أوّل المدائن من أعلى النهر»(١).

ينسب إليها ياقوت: «أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي الضرير صاحب الصحيح أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث ومجموعة من العلماء الآخرين(٢).

٦- خُجند - خجندة

عرَّفها الإصطخري قائلاً: «أما خجندة فمتاخمة لفرغانة وهي على غربي نهر الشاش ليس في عملها مدينة غير كند، ولها نهر عظيم يسافر فيه بالمتاجر والمير»(٣).

ووصفها المقدسي بقوله: «مدينة نزيهة ليس بهذا الجانب أطيب منها، وسطها نهر جارٍ والجبل متصل بها وهي رأس الحدّ، وقد مدحها العقلاء ونعتها الشعراء»(٤).

وأضاف ياقوت: «وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون... وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه منها، ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهر جار، والجبل متصل بها»(٥).

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧.

(٣) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٤) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٥) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤٧.

ونسب إليها مجموعة من أهل العلم، منهم أبو عمران موسى ابن عبدالله المؤدب الخجندي[١].

٧- خوارزم - خيوة

وردت عند المقدسي: «هي كورة على حافتي جيحون، قصبتها العظمى «بهيطل»، ولها قصبة أخرى بخراسان»، ويميز أهل خوارزم من غيرهم من سكان حافتي جيحون قائلاً: «وهم يخالفون أهل الجانبين في الرسوم واللسان والخلق والطباع».

ثم يضيف في وصفها: «وهي كورة جليلة واسعة كثيرة المدن ممتدة العمارة... لا ينقطع المنازل والبساتين، كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والفواكه والخيرات، مفيدة لأهل التجارات، أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب».

وهو يصف متعلميهم: «وأقلُّ إمام في الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي قد تقدم وزجا»[*][٢].

أما طباعهم فهي كالبربر، «متصلة المنازل غزيرة الأنهار، معدن السمك والأغنام، ومطرح الغُز والأتراك»[٣].

ويوضح ياقوت أن اسم خوارزم ليس لمدينة «إنما هو اسم

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج٢، ٣٤٨.

(*) زجا: تيسر واستقام [يعلمه]، وزجا الخراج أي تيسرجبايته، المعجم الوسيط، ص ٣٨٩.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

للناحية بجملتها» وقصبتها في زمن ياقوت كانت «الجرجانية»، وأما أصل التسمية على ما يورد ياقوت، فهو يعود إلى أحد الملوك القدماء الذي أبعد أربعمئة من أهل مملكته إلى هذه الناحية وبعد فترة من الزمن طلب من بعضهم أن يتقصى أخبارهم، فوجدهم قد بنوا الأكواخ واصطادوا السمك وجمعوا الحطب لشيّه، ولما بلغ ذلك الملك سمى ذلك المكان خوارزم، «لأن اللحم بلغة الخوارزمية خوار والحطب رزم، فصار خوارزم».

زارها ياقوت عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، فوجد «أكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين، وفي النادر أن يكون قرية لا سوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة»[١].

توسع نفوذ خوارزم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ليضم مناطق واسعة في آسيا الوسطى وأفغانستان وبلاد فارس إلى أن سقطت في أيدي المغول، لتضم فيما بعد عام ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨ م إلى دولة تيمورلنك[٢]. **أما أبرز علمائها**: الخوارزمي واضع علم الجبر واللوغارتيمات، وأبو علي ابن سينا المعروف بالطب والفلسفة، وأبو الريحان البيروني المشهور في الرياضيات والفلك[٣].

---

(١) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٩٦.

(٢) كي ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٥، ص ٤٩٢.

(٣) زهير حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥، ج١، ص ٣٢٩، ج٢، ص ٢٣٦و ٤٥٤.

٨- سمرقند

تعتبر مدينة سمرقند من أبرز مدن بلاد ما وراء النهر، وتعود أهميتها والمكانة التي كانت عليها إلى موقعها الجغرافي، فهي تقع على ملتقى طرق تجارية كبرى، تربط ما بين الهند وإيران، عبر بلخ ومرو، بالإضافة إلى خصوبة أرضها[١].

وقد وردت عند الجغرافيين والرحالة الذين أظهروا أهميتها وموقعها البارز، ومن هؤلاء:

- **ابن حوقل**: يصف سمرقند ومحيطها، ويعتبرها من أنزه الأماكن، فالمناطق المحيطة بسمرقند: «لا تنقطع خضرتها ولا تتصرم زهرتها... مشتبكة البساتين والخضرة والرياض والميادين، إنها ثوب ديباج أخضر... فهي أزكى بلاد الله... وأحسنها أشجاراً وأيمنها وأطيبها ثماراً...»[٢].

- **المقدسي**، في تعريفه مدينة سمرقند: «قصبة الصغد»[*] ومصر الأقاليم، بلدي سريٌّ جليلٌ عتيق، ومصر بهيٌّ رشيق... وماء غزير بنهر عميق... بناء قوي سني وثيق... وعيش هني إليها الطريق، وحمل المتاع من كل فج عميق، علوم كثيرة... وخيل ورجال ومال

---

(١) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص ٣٨٤.

(*) الصغد: هي أرض واسعة ذات بساتين، وأشجار وفواكه، ومياه، ومدن عامرة، ولها نهر يسمى الصغد، ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور الزناتي، القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٨، ص ١٢٥.

دفيق ذو رساتيق جليلة ومدن نفيسة وأشجار وأنهار، جيدة الجواري ردية الغلمان... بناؤهم طين وخشب»(١).

- **ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)**: «هي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادي القصارين عليه النواعير تسقي البساتين»(٢).

استمرت سمرقند تحافظ على مكانتها السياسية والاقتصادية مع سيطرة تيمورلنك على بلاد ما وراء النهر، فخضعت له، حيث اتخذ منها عاصمة لمملكته، فتوسعت عمرانياً وسكانياً حتى استحقت أن تكون عاصمة سيد الشرق تيمور العظيم.

ويرد وصف لسمرقند من خلال سفارة ملك قشتالة، إنريكي الثالث، الذي كان قد بعث بسفارة من قبله إلى تيمورلنك في العام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م، ويظهر من خلال هذه السفارة أن إقليم سمرقند توسع ليصل إلى الضفة الشمالية لنهر جيحون، وأن المنطقة بكاملها من ضفة نهر جيحون وامتداداً إلى ما وراء سمرقند مكتظة بالسكان، «لأن الأرض غنية بالمحاصيل»(٣)، ونظراً إلى مكانة سمرقند وموقعها، مرّ بها طريق الحرير. لذا ظهر من خلال هذه السفارة غنى أسواق المدينة وهو ما أورده سفير مملكة قشتالة بقوله: «إن بلاد

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المصدر السابق، ص ٢٢٢.

(٢) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي الكتاني، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٧٥، ج١، ص ٤٢٠.

(٣) سفارة إلى تيمورلنك، ترجمة سهيل زكار، دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٥، ص ٢٢٢.

سمرقند ليست فقط غنية بمواد الطعام، بل أيضاً بالصناعات، حياكة الحرير... وكذلك بالسجاد وبالحرائر والأقمشة... بالإضافة [إلى] التوابل»[١].

ومن أبرز أعلام سمرقند

- **أبو منصور محمد بن أحمد السمرقندي (٥٧٥هـ/ ١١٨٠م)**، صاحب كتاب تحفة الفقهاء[٢].

- **أبو الليث نصر بن أحمد السمرقندي (ت ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م)**، صاحب كتاب **بستان العارفين وتنبيه الغافلين**، وهو من أئمة الحنفية من الزهاد المتصوفين[٣].

- **أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ/ ٩٤٤م)**، وهو من أئمة علم الكلام[٤].

وتضم سمرقند ضريح قثم بن العباس، وضريح الإمام البخاري، وقبر تيمورلنك الذي يعتبر آية في الفن المعماري الآسيوي[٥].

كما يوجد فيها العديد من المدارس القديمة، بالإضافة إلى مسجد باسم بيبي هانم زوجة تيمورلنك، الذي بناه هذا الأخير تخليداً

---

(١) سفارة إلى تيمورلنك، المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٢) الزركلي، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢، ج٥،ص ٣١٨.

(٣) المرجع نفسه، ج٨، ص ٢٧.

(٤) المرجع نفسه، ج٧،ص ١٩.

(٥) إحسان بنت سعيد خلوصي، الطريق إلى سمرقند، دمشق، مطبعة هاشم، ط١، ١٩٩٠، ص ٧٨.

لانتصاراته في الهند، وهو من أكبر مساجد العالم الإسلامي وأكبر مساجد آسيا الوسطى[1].

٩- خشقند (الشاش)

ذكرها القزويني بقوله: «من أنزه بلاد الله وأكثرها خيراً، وكانت عامة دورهم يجري فيها الماء وكلها مستترة بالخضرة»[2].

وردت عند الحميري (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م): «والشاش مدينة جليلة من عمل سمرقند، وليس بخراسان وما وراء النهر كورة ولا إقليم على مقدارها في المساحة، أكثر منابر وقرى عامرة من هذه الناحية.. والشاش في أرض مستوية لا جبل فيها ولا أرض مرتفعة، وبساتينها ومنتزهاتها كثيرة، وهي من الثغور التي في ناحية الترك، ولأهلها سطوة ومنعة»[3].

أما ياقوت فقال: «... فهي بما وراء النهر، ثم ما وراء نهر سيحون، متاخمة لبلاد الترك، وأهلها شافعية المذهب، وإنما أشاع بها هذا المذهب مع غلبة مذهب أبي حنيفة في تلك البلاد».

ويضيف ياقوت: «... وأبنيتهم واسعة من طين، وعامة دورهم يجري فيها الماء، وهي كلّها مستترة بالخضرة من أنزه بلاد ما وراء

---

(١) جاستن مروذي، تيمورلنك، ترجمة مايا أرسلان، بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١١، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، المصدر السابق، ص ٥٣٨.

(٣) الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤، ص ٣٣٥.

النهر، وقصبتها بنكث ولها مدن كثيرة»، ولكنها في زمان ياقوت كانت مخرّبة وقد أظهر ذلك بقوله: «وقد خربت جميعها في زماننا، خرّبها خوارزم شاه محمد بن تكش، لعجزه عن ضبطها وقتل ملوكها وجلا عنها أهلها..».

أما أبرز علمائها فهو: «أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفّال الشاشي... مات سنة (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) وكان أوحد أهل الدنيا في الفقه والتفسير واللغة»، كما ينسب إليها «أبو الحسن علي بن الحاجب بن جُنيد الشاشي»[١].

١٠- فرغانة

وردت عند الإصطخري: «فرغانة اسم الإقليم وقصبتها أخسيكت، وهي مدينة على شط نهر الشاش... وليس بما وراء النهر أكبر من قرى فرغانة، ربما بلغت القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومزارعهم، ولفرغانة كور لكل كورة منها عدة مدن لكل مدينة رستاق فيه عدة قرى»[٢].

أما القزويني فعرّفها قائلاً: «فرغانة ناحية على بلاد كثيرة بعد ما وراء النهر، متاخمة لبلاد الترك، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة، على مذهب أبي حنيفة، وأحسن الناس صورة، كانت ذات خيرات وغلات وثمرات...»[٣].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٠٨ – ٣٠٩.
(٢) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٣٣٣- ٣٣٤.
(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

ووصفها ياقوت قائلاً: «مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان... كثيرة الخير واسعة الرستاق، يقال كان بها أربعون منبراً، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً... وبفرغانة في الجبال الممتدة بين الترك وبينها من الأعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه والورد والبنفسج وأنواع الرياحين مباحٌ ذلك كله لا مالك له ولا مانع يمنع الأخذ منه، وكذلك في جبالها، وجبال كثيرة مما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس ببلد غيره»، ينسب إليها «حاجب بن مالك بن أركين أبو العباس التركي الفرغاني»[١].

١١- كاشغر

وردت عند ياقوت: «هي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون»[٢].

كما وردت عند الحميري في **الروض المعطار**: «كثيرة الخيرات، فيها متاجر وبضائع، وهي على نهر صغير»[٣].

كانت من أهم مدن تركستان الشرقية وعاصمتها مدة طويلة[٤].

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٥٢- ٢٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٠.

(٣) الحميري، الروض المعطار، المصدر السابق، ص ٤٨٩.

(٤) محمد بن موسى الشريف، علماء آسيا الوسطى بين الماضي والحاضر، ص ٨٣- ٨٤، (دون دار نشر ودون تاريخ).

١٢- كَش (شهرسبز)

اعتبرت من أبرز مدن الصغد(*)، تراجع دورها في عهد السامانيين، يطلق عليها اسم شهرسبز.

قال عنها المقدسي: «بلد كبير له مدينة وربض... بناؤهم طين وخشب مثل بُخارى، وهي خصبة ومنها تحمل البواكير (الأثمار التي تدرك أولاً)... وهي كثيرة الأعناب الجيدة، والمزارع العذبة الطيبة كبيرة، إلا أن ماءها ضيّق ونهرها ينقطع وأهلها غاغة(**)..»(١).

و ذكرت عند القزويني: «مدينة بقرب سمرقند حضية... وفي عامة دورها الماء جاري والبستان...»(٢).

١٣- مرغلان

عرفت باسم مرغينان، تقع إلى الجنوب الشرقي من وادي فرغانة(٣).

قد تكون هي «مرغبان» التي وردت عند ياقوت ويذكرها قائلاً: «قرية من قرى كس(كش)»(٤).

(*) الصغد: يمكن تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى خمسة أقاليم، الصغد ومنه بخارى وسمرقند وخوارزم ويختلف عن إقليم خراسان الذي يقع جنوبه، ياقوت، معجم البلدان، المصدر السابق، ج٣، ص ٤٠٩.

(**) غاغة: والمعنى الغوغاء (غوغاء الناس)، ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، د.ت، ج٨، ص ٤٤٤.

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٢) القزويني، آثار البلاد، المصدر السابق، ص ٥٥٤.

(٣) محمد بن موسى الشريف، علماء آسيا الوسطى بين الماضي والحاضر، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٤) ياقوت، المصدر السابق، ج٥، ص ١٠٨.

ذكرها السمعاني قائلاً بأنها: «من أشهر البلاد من نواحي فرغانة، وقد أصبحت منذ عهد القراخانيين أهم مدن المنطقة[1].

١٤- نخشب - نسف - قرشي:

وردت عند ياقوت: «هي مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق، بين جيحون وسمرقند، خرج منها جماعة كثيرة من أهل العلم في كل فن»[2].

وعند القزويني: «مدينة مشهورة بأرض خراسان، منها الأولياء والحكماء ينسب إليها الحكيم ابن المقفع...»[3].

ونخشب أو نسف، هي مدينة مشهورة في التاريخ عند المسلمين، واسم نسف قلبه العرب «من الاسم المحلي وهو نخشب، أما الاسم الحالي وهو قرشي فلم تتخذه المدينة إلا في القرن الرابع عشر».

كان يجري في وسطها نهر، وتقوم على ضفته دار الإمارة والطريق بينها وبين بُخارى حوالى التسعين ميلاً[4].

أما أبرز المدن التي اندثرت فهي:

١- أسيفجاب

ذكرها ياقوت قائلاً: «اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان، ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة...

---

(١) السمعاني، حيدر آباد؛ مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٩٦٢، ج١٢، ص ١٩٤.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ن ج٥، ص ٢٨٥.

(٣) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٦.

(٤) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ٤٨٠.

كانت من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصباً وشجراً ومياهاً جارية ورياضاً مزهرة، ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلد لا خراج عليه إلا أسفيجاب، لأنها كانت ثغراً عظيماً، فكانت تعفى من الخراج، وذلك ليصرف أهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام في تلك الأرض...» وكان شاه محمد بن تكش بن أكسب أرسلان بن آق سنقر، عندما ملك بلاد ما وراء النهر لم يستطع حفظ تلك البلاد «لسعة مملكتها، فخرّب بيده أكثر تلك الثغور وأنهبها عساكره»[1].

٢- بيكند

ذكرها ياقوت قائلاً: «بلدة بين بخارى وجيحون، على مرحلة بخارى، لها ذكر في الفتوح، وكانت بلدة كبيرة حسنة كثيرة العلماء، خربت منذ زمان... كل بلدة بما وراء النهر لها مزارع وقرى إلّا بيكند فإنها وحدها، غير أن بها من الرباطات ما لا أعلم ببلد من البلدان مما وراء النهر أكثر منها، بلغني أن عددها نحو ألف رباط...»[2].

٣- فرْبرو

قال ياقوت: «بليدة بين جيحون وبخارى، بينها وبين جيحون نحو الفرسخ، وكان يعرف برباط طاهر بن علي، وقد خرج منها جماعة من العلماء...»[3].

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٩.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٥٣٣.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ٢٤٥.

هذه المدن في معظمها لعبت دوراً أساسياً في تاريخ بلاد ماوراء النهر، تحولت بعضها إلى عواصم سياسية واقتصادية بارزة، فكانت جزءاً أساسياً من تاريخ تلك البلاد تقاتلت الأسر الحاكمة للسيطرة عليها، لتتحكم من خلالها في سياسة المنطقة، ولتحقق أهدافها السلطوية ولترفع من مكانتها كقوة لا يمكن تخطيها.

لذا نجد كتب الرحلات والجغرافيا في العصور الوسطى تأتي على ذكرها وتبين أهميتها ودورها ومكانتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحتى العسكرية.

الفصل الثاني

دخول الإسلام
إلى بلاد ما وراء النهر
وأبرز الأسر الحاكمة

قبل دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر، كانت تلك البلاد قد دخلتها أقوام من الأتراك في القرن السادس للميلاد، حيث ظهرت ولايات خاصة بهم، وكان هؤلاء الأتراك قد تأثروا بالثقافات الصينية والإيرانية المحيطة بهم، وبالتالي ظهرت عندهم الديانات: الزرادشتية والكونفوشيوية والبوذية والشامانية وعبادة النار، وهي الديانات المعروفة في كُلٍّ من الصين وإيران أيضاً.ومن الممالك التي عُرفت في تلك المنطقة حينذاك:

١- مملكة طخارستان على جانبي نهر جيحون، وعاصمتها بلخ[١].

٢- مملكة صغانيان إلى الشمال من نهر جيحون، وعاصمتها شومان[٢].

٣- مملكة الصغد بين نهري سيحون و جيحون، وعاصمتها سمرقند، ومن مدنها بخارى[٣].

---

(١) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد سليمان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٤٠.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج٣، ص ٤٠٨- ٤٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٠٩.

٤- مملكة فرغانة على جانبي نهر سيحون، وعاصمتها جخندة[١].

٥- مملكة خوارزم قرب بحر خوارزم، وعاصمتها الجرجانية[٢].

٦- مملكة أشروسنة إلى الشرق من فرغانة، وعاصمتها بنجكت[٣].

٧- مملكة الشاش إلى الشمال من نهر سيحون، وعاصمتها بنكث[٤].

دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر

دخل الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب منذ العام ١٨ هـ/ ٦٣٩ م، واستمر في عهد الخليفة عثمان ابن عفان، ليتوسع انتشار الإسلام فيشمل أفغانستان، ثم ليتوقف هذا الانتشار برهة من الزمن، في فترة الفتن التي عرفتها الدولة الإسلامية في خلافة الإمام علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ/ ٦٦١م).

ثم يعود لينتشر من جديد مع القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي (ت ٩٦هـ/ ٧١٥ م)، الذي يعود إليه الفضل في فتح بلاد ما وراء النهر عام ٨٦هـ/ ٧٠٥ م[٥].

وأول احتكاك بين العرب المسلمين وسكان ما وراء النهر يعود إلى العام ٢٢هـ/ ٦٤٢م، عندما تقدمت القوات العربية بقيادة

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٠٨.

(٥) الطبري، تاريخ الطبري، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٨،ج٨،ص ٩.

«الأحنف بن قيس التميمي» وهي تلاحق ملك الفرس يزدجرد إلى نهر جيحون[١].

ولم تعرف بلاد ما وراء النهر أي جيوش عربية بعد ذلك، إلى أن بعث الخليفة عثمان بن عفان عامله على البصرة «عبدالله بن عامر» إلى خراسان لإخضاعها، فدخل عاصمتها مرو، وبعد هذا النصر عبر القائد العربي «الأحنف بن قيس» نهر جيحون، حيث خشي أهالي بلاد ما وراء النهر من قتاله فصالحوه، واستخلف قيس بن الهيثم» على تلك البلاد[٢].

ومع نقض أهالي خراسان للصلح الذي عقدوه مع المسلمين، بعث معاوية بن أبي سفيان إليهم «قيس بن الهيثم»، عام ٤٢هـ/ ٦٦٢م، فدخل بلخ[٣] وخرَّب معبدها حتى «سألوا الصلح ومراجعة الطاعة فصالحهم قيس»[٤].

إلاّ أن باقي ما وراء النهر بقي خارجاً عن حكم العرب، فولاها معاوية لعبيد الله بن زياد، وكان لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره، «فقطع النهر في أربعة وعشرين ألفاً»، وكانت حاكمة

---

(١) الطبري، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٨- ٣٩ - ٤٠.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت: دار النشر للجامعيين، ١٩٥٨، ص ٥٧٤.
- الطبري، ج٥، ص ١٣١ - ١٣٢.
(٣) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٤٧٩.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، المصدر السابق، ص ٥٧٥- ٥٧٦.

بخارى «خاتون»، قد خشيت من جيش المسلمين، فأرسلت إلى الترك تستعين بهم في حربها «فلقيهم المسلمون فهزموهم، ووحدوا عسكرهم، وأقبل المسلمون يخربون، فبعثت إليهم خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها على ألف الف ودخل المدينة...»[1].

وينقل أن معاوية ولّى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان، «فقطع النهر... فلما بلغ خاتون عبوره النهر حملت إليه الصلح... ودخل سعيد مدينة بُخارى، ثم غزا سعيد بن عثمان سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بُخارى...»[2].

وعام ٤٨هـ/ ٦٦٨م، دخل إلى خراسان، من قبل معاوية، الحكم ابن عمرو الغفاري «الصفانيا»، وهو من أقاليم بلاد ما وراء النهر[3].

وفي العام ٥٤هـ/ ٦٧٣م، عمد والي خراسان الأموي عبيد الله ابن زياد إلى قطع نهر جيحون باتجاه بخارى، واعتبر أول عربي يقطع هذا النهر، وافتتح بعضاً من بلاد ما وراء النهر[4].

إلا أن ابن الأثير أورد أن أول من قطع هذا النهر هو سعيد بن عثمان بن عفان عندما كان والياً لمعاوية على خراسان[5].

ويبدو أن أهالي بلاد ما وراء النهر كانوا دائماً ما ينقضون الصلح

---

(١) البلاذري، المصدر السابق، ص ٥٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧٦- ٥٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٧٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٩، ج٢، ص ٥٠٦.

مع المسلمين، فنلاحظ أن عدداً من ولاة الأمويين على خراسان، كانوا دائماً ما يغزون تلك البلاد ويخضعونها من جديد. على سبيل المثال:

- عام ٦١هـ/ ٦٨٠م، غزا مسلم بن زياد، والي يزيد بن معاوية على خراسان، خوارزم، فصالحه أهلها، كما فعل مثلهم أهالي سمرقند(١).
- وفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٦٨ هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥م) تولى ولاية خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي المهلب ابن أبي صفرة، الذي قام بالعديد من الغزوات في بلاد ما وراء النهر، وتلاه في ذلك كل من يزيد بن المهلب، والمفضل بن المهلب، والمغيرة بن المهلب ثم ولده يزيد من بعده(٢).

والجدير ذكره أن تلك الفتوحات التي عرفتها بلاد ما وراء النهر حتى ذلك الحين كانت مجرد غزوات لم تأخذ شكل الفتح النهائي، لذلك لاحظنا أنها كانت تتكرر على الأماكن نفسها عند تولية القادة الجدد على خراسان.

قتيبة بن مسلم وبلاد ما وراء النهر

مع تولي قتيبة بن مسلم (ت ٩٦هـ/ ٧١٥م)، ولاية خراسان عام ٧٦هـ/ ٦٩٥م، بدأ العمل على إخضاع بلاد ما وراء النهر

---

(١) الطبري، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٥٨- ٢٥٩.

(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص ٥٨٦ و ٥٨٧و ٥٨٩.

بشكل نهائي، وذلك بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٨٦هـ/ ٧٠٤م[١].

وكان ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥- ٧١٥م)، حيث اتسعت دائرة الفتوح الإسلامية، فعرف ذلك العهد ثلاثة من القادة المسلمين وهم: قتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم ابن محمد الثقفي، وموسى بن نصير[٢]. فمع العام ٨٧هـ/ ٧٠٦م بدأ قتيبة بن مسلم بغزو «بيكند»[٣]، وبعد قتال شديد طلب أهلها الصلح فكان لهم ما أرادوا، إلا أنهم سرعان ما غدروا بعامله عليهم «ورقة ابن نصر» وقتلوه، فعاد إليهم قتيبة وقاتلهم حتى أنزل بهم الهزيمة[٤].

بعدها توجه قتيبة نحو بخارى، فأخضع الإمارات الصغيرة المستقلة عنها في البداية وذلك بغية حصار بخارى ومنع المساعدة عنها، ومن هذه الإمارات: «كش» و «نخشب»، وكان ذلك في العام ٨٩هـ/ ٧٠٨م[٥].

إلا أن أمراء بلاد ما وراء النهر من الترك حشدوا جيوشهم وخرجوا لاعتراضه، يدعمهم أمراء الصغد، لمنعه عن بخارى، وانضم

---

(١) أرمنيوس فامبري، تاريخ بخارى، ترجمة أحمد محمود الساداتي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، د.ت، ص ٦١.

(٢) سعد بن محمد الغامدي، الفتح الإسلامي لبلاد وادي السند، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ٩، ١٩٨٨، ص ٢٩.

(٣) بيكند: وهي تقع بين جيحون وبخارى، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٥٣٣.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، المصدر السابق، ص ٥٩١.

(٥) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص ١٨.

إليهم أمير فرغانة وحاصروا قتيبة وجيشه[1]، وساعد الصراع الذي ظهر بين أمراء الترك قتيبة على فك الحصار[2].

ويورد فامبري أن قتيبة استطاع أن يستميل بعض أمراء الترك ومنهم حاكم سمرقند، ووقعت العهود مع بعضهم[3].

بينما يعتبر البلاذري أن سمرقند سقطت بعد قتال، حيث استسلم أهلها وصالحوه على «ألفي ألف درهم في كل عام، وعلى أن يصلي في المدينة فدخلها... واتخذ مسجداً، وخلَّف بها جماعة من المسلمين... وكان في صلحه بيوت الأصنام والنيران، فأخرجت الأصنام فسلبت حليتها وأحرقت، وكانت الأعاجم تقول إنّ فيها أصناماً من استخف بها هلك، فلما أحرقها قتيبة بيده أسلم منهم خلق»[4].

أما بخارى، فكانت ملكتها «خاتون» لا تزال تحكمها حتى ذلك الوقت، فلم تجد بداً من التسليم بالفتح الإسلامي، بعد الاقتناع بعدم جدوى القتال[5].

وفي العام ٩٣هـ/ ٧١١م، فتح قتيبة مدن خوارزم من دون قتال[6].

---

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي: القاهرة: دار المعارف، ط٣، ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٣) فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٦٦.

(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص ٥٩٢.

(٥) الطبري، ج٨، ص ٢٠.

- البلاذري، المرجع السابق، ص ٥٩١.

(٦) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص٣٦.

وما بين الأعوام ٩١- ٩٧هـ/ ٧٠٩ - ٧١٥م، توسع حكم المسلمين ليشمل المناطق الممتدة من وادي نهر جيحون إلى بلاد الصغد وإقليم فرغانة وبيكند وخوارزم وأرمينية، حتى كاشغر على حدود الصين، كما دانت لقتيبة ولايات أوزبكستان وطاجيكستان وغيرها[١].

بذلك تكون الفتوحات الإسلامية لبلاد ما وراء النهر قد مرَّت بأربع مراحل:

المرحلة الأولى: امتدت من العام ٨٦هـ/ ٧٠٥م، سيطرت خلالها الجيوش الإسلامية على منطقة طخارستان.

المرحلة الثانية: من العام ٧٨- ٩٠هـ/ ٦٩٧ - ٧٠٨م، فتحت خلالها بخارى، ووضعت شروط الصلح بين سمرقند والمسلمين.

المرحلة الثالثة: بين الأعوام ٩١- ٩٣هـ/ ٧٠٩ - ٧١١م، وصلت خلالها الجيوش العربية إلى وادي نهر جيحون وبلاد الصغد.

المرحلة الرابعة: بين الأعوام ٩٤- ٩٧هـ/ ٧١٢- ٧١٥م، أخضعت فيها المناطق الواقعة على نهر جيحون، كما وصلت الجيوش الإسلامية إلى حدود الصين، وفتحت مدن كاشغر والشاش وفرغانة[٢].

---

(١) فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٤، ص ٤١.

طرائق دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر

اتبع قتيبة بن مسلم الباهلي عدة طرق بغية إدخال الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر وترسيخه بين السكان المحليين، ومن أبرز هذه الطرائق:

١- فتح المساجد في المدن الهامة (بخارى- سمرقند).

٢- فتح الربط والخوانق[١].

٣- توطيد النفوذ العربي الإسلامي في المدن ذات المراكز التجارية الهامة، حيث أنزل عدداً كبيراً من العائلات العربية المسلمة فيها، ومنها طشقند (الشاش)، وفرغانة[٢].

٤- تقديم المكافآت لكل من يؤدي الصلاة في المسجد ولو مرة واحدة أسبوعياً.

٥- الطلب من أئمة المساجد قراءة القرآن باللغة الفارسية، التي كانت اللغة الرائجة في تلك البلاد حينها[٣].

٦- العمل على نشر اللغة العربية بشكل واسع[٤].

٧- تعيين إداريين مسلمين في الوظائف الإدارية في مختلف المدن والقرى الكبرى[٥].

---

(١) موير سير وليام، الخلافة صعودها وبزوغها وسقوطها، بيروت، ١٩٦٣، ص ٣٦٥.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، المصدر السابق، ص ٦٠٦.

(٣) النرشخي، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٦٧.

٨- بناء المدارس الإسلامية، مما شجع على قيام نهضة ثقافية عربية إسلامية ساهمت في نشر اللغة العربية[١].

٩- إسقاط الجزية عن كل من يعلن إسلامه[٢].

بلاد ما وراء النهر بعد قتيبة بن مسلم

كان قتيبة بن مسلم والحجاج الثقفي، قد دعما سعي الوليد ابن عبد الملك إلى نزع ولاية العهد من أخيه سليمان وجعلها في ولده عبد العزيز، ومع موت الوليد (٩٦هـ/ ٧١٤م)، وتولي سليمان الخلافة (٩٦- ٩٨هـ/ ٧١٥ - ٧١٧م)،خشي قتيبة انتقام الخليفة الجديد ومن خلعه عن ولاية خراسان. وساءت العلاقة بينه وبين سليمان فبعث إلى الخليفة برسول يحمل ثلاثة كتب، أحدها يهنئه فيه بالخلافة، والآخر «يعلمه فيه فتوحه ونكايته، وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم...».

وفي الكتاب الثالث ورد: «لئن لم تقرني على ما كنتُ عليه وتؤمنني لأخلعنّكَ ولأملأنها عليك رجالاً وخيلاً». إلا أن الجند ممن كان مع قتيبة «كرهوا خلع سليمان فأجمعوا على خلع قتيبة»، فتآمروا عليه وقتلوه[٣].

بعد مقتل قتيبة بن مسلم تراجع النفوذ العربي في بلاد ما وراء

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، بيروت: دار النهضة، ١٩٨٦، ص ٦٢٤.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، المصدر السابق، ص ٥٩٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٤ - ٢٣٦.

النهر، خصوصاً أن الأمويين كانوا قد أبقوا على الأمراء الأتراك على إماراتهم لقاء ولائهم للخلافة العربية، وفق معاهدات عسكرية مالية[١].

فاستغل هؤلاء الأتراك ضعف الدولة الأموية والصراعات التي دارت في أواخر أيامها، فقامت الثورات على العمال الأمويين، وكان أبرزها:

١- ثورة أمير فرغانة، بعد مقتل قتيبة[٢].

٢- ثورات بخارى وسمرقند[٣].

وقد واجهت الدولة الأموية هذه الثورات، واستطاع الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز(٩٩- ١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م) اتخاذ سلسلة من الإجراءات ساعدت على دخول الأتراك في الإسلام، ليتحولوا شيئاً فشيئاً إلى قوة مدافعة عن الإسلام مقابل غزوات الأتراك الشرقيين وغاراتهم على بلاد ما وراء النهر[٤].

وأبرز القادة الأمويين الذين واجهوا غزوات الأتراك الشرقيين هما: أسد بن عبدالله القسري (١١٧-١٢١هـ/ ٧٣٥-٧٣٨م)، ونصر ابن سيار (١٢١- ١٢٩ هـ/ ٧٣٨- ٧٤٦م)[٥].

والجدير ذكره، أن سليمان بن عبد الملك ولّى يزيد بن المهلب

---

(١) أرمينوس فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٥.

(٤) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٥) فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٧٥- ٧٦.

(٩٧هـ/ ٧١٥م) خراسان، بعد مقتل قتيبة[١]. ومع تسلمه أعمال خراسان، قاد عدة فتوحات،كان أبرزها: فتح جرجان وطبرستان[٢].

عمر بن عبد العزيز وبلاد ما وراء النهر

مع تسلم عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م)، استطاع من خلال السياسة التي اتبعها ومن دون قتال، أن يدخل العديد من السكان في بلاد ما وراء النهر في الإسلام، حتى أطلق على عهده (العهد الذهبي لآسيا الوسطى).

يقول المؤرخ بوريبوي أحمدوف: «لقد اهتم الخلفاء بنشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر، فكانوا يلجؤون إلى الطرق السلمية ومنها الإعفاء من دفع الخراج والجزية، وهي سياسة اتبعها ولاة العرب في خراسان وما وراء النهر منذ عهد عمر بن عبد العزيز»[٣].

لقد قام عمر بن عبد العزيز بإلغاء الجزية التي كانت مفروضة على سكان ما وراء النهر منذ زمن الحجاج بن يوسف الثقفي، وبرد المال الذي أخذ من أصحابه، يورد الطبري أن عمر بن عبد العزيز كلّف موظفاً رد هذا المال إلى أصحابه، حيث قصد بلاد ما وراء النهر كلها قصبة قصبة[٤].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٤٦.

(٣) بوريبوي أحمدوف، العرب والإسلام في أوزبكستان، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ١٩٩٩، ص ٨٣.

(٤) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص ٨٩.

كما ألغى العديد من القرارات التي كانت مفروضة زمن أسلافه من الخلفاء الأمويين، فألغى جمع الخراج من الفلاحين الذين دخلوا في الإسلام وأرفق ذلك بتعزيز الدعوة إلى الدين الإسلامي[1].

ومن سلسلة التغيرات التي أجراها عمر بن عبد العزيز على تلك البلاد، عزل يزيد بن المهلب عن خراسان، وولاها الجراح بن عبدالله الحكمي[2] وأرسل إليه كتاباً يطالبه فيه باستخدام العدل والحق مع أهل خراسان[3]. ليعزله فيما بعد ويعين مكانه عبد الرحمن بن نعيم القشيري[4].

كما رصد عمر بن عبد العزيز مبلغ مئة دينار من بيت المال لكل داعية،و هو ما ساهم في زيادة الدعاة من ناحية، وفي دخول أهالي بلاد ما وراء النهر في الإسلام بشكل جماعي، بعد أن كان فردياً في السابق[5].

إلا أن هذه السياسة المعتدلة في كسب ود وولاء سكان بلاد ما وراء النهر سرعان ما تبدلت مع وفاته، حيث عادت الفتن والثورات في تلك البلاد مع عودة الولاة إلى فرض الضرائب وجمع الثروات[6].

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٤٩.

(٢) الطبري، المصدر السابق، ج ٨، ص ٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٨، ص ٩١.

(٤) المصدر نفسه، ج٨، ص ٨٩.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٩٧، ج٩، ص ١٥٢.

(٦) الطبري، ج ٨، ص ١٤٣- ١٤٤.

بلاد ما وراء النهر في عهد هشام بن عبد الملك

مع وصـول هشام بن عبد الملك إلى الخلافة (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤- ٧٤٣م)، «عيّن نصر بن سيار» والياً على خراسان، وقد عرفت هذه الفترة من تاريخ بلاد ما وراء النهر ظهور أسماء لامعة لعبت دوراً علمياً بارزاً في التاريخ الإسلامي، من أمثال: البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والبيهقي من أئمة الحديث.

والطبري المؤرخ الذي عاش في بخارى، كما ظهر الخوارزمي المؤرخ والشاعر، وابن سينا الطبيب والفيلسوف، والغزالي صاحب كتاب إحياء علوم الدين، والزمخشري من أئمة التفسير[١].

إن ظهور هؤلاء الرجال الذين لمعوا في مختلف العلوم المعروفة في ذلك الزمان، وفي بلاد ما وراء النهر تحديداً، إنما هو دليل على تعمق كبار رجال الفكر في حواضر ما وراء النهر بالدين الإسلامي، وتحولهم من متلقٍ للإسلام إلى مساهم أساسي وفعلي في تفسير الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، ليس في مناطقهم وعند شعوبهم فحسب، بل ولسائر العالم الإسلامي وشعوبه حينذاك، وهذا بالتالي تطور فكري سينقل العالم الإسلامي إلى عصر جديد، هو عصر النهضة الإسلامية، كما يمكننا أن نطلق عليه.

ومع العام ١٠٦هـ/ ٧٢٤م، عمد والي خراسان من قبل هشام بن عبد الملك، مسلم بن سعيد، إلى غزو بلاد الترك لإخضاع الخارجين

(١) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ٥٠.

على دولة الخلافة الأموية، وأثناء غزوته بلغه عزله عن خراسان بخالد ابن عبدالله القسري، الذي ضمت إليه بالإضافة إلى ولاية خراسان، كُلّ من العراق والمشرق[١].

وقد جعل خالد أخاه أسد بن عبدالله على خراسان من قبله[٢] واستطاع هذا الأخير غزو بلاد الغرشستان، التي تقع بعد جبال الطالقان، فصالحه ملكها وأسلم على يديه[٣] كما وغزا الغور في جبال هراة[٤].

وقد عرفت خلافة هشام بن عبد الملك تغييراً دائماً للولاة الأمويين على خراسان وبلاد ما وراء النهر، وقد يعود ذلك إلى سوء إدارة هؤلاء الولاة، أو إلى عدم السماح لهؤلاء الولاة بالتوسع في علاقاتهم وتوسعة نفوذهم على حساب الدولة، أو إلى صراع القادة للوصول إلى ولاية خراسان وما وراء النهر لعظم قدرها ونسبة الأموال التي تجبى منها لغناها.

وهؤلاء الولاة هم:

- **الحكم بن عوانة الكلبي**، عام ١٠٩هـ/ ٧٢٧ م، بعد أن عزل خالد

---

(١) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص ١٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٨، ١٤٨.

(٤) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ٣٩٦.

- الطبري، ج ٨، ص ١٤٨.

أخاه أسداً، والسبب في ذلك كما يورد الطبري «تعصب أسد وأفسد الناس بالعصبية»[١].

- **أشرس بن عبدالله السلمي**، الذي تسلمها بعد الحكم في العام نفسه «وكان أشرس فاضلاً خيراً، وكانوا يسمونه الكامل لفضله عندهم فسار إلى خراسان فلما قدمها فرحوا بقدومه»[٢].
- **الجنيد بن عبد الرحمن**، عام ١١١هـ/ ٧٢٩م، ويورد الطبري سبب توليه خراسان وعزل أشرس عنها: «وكان سبب استعماله إياه أنه أهدى لأم حكيم بنت يحيى بن الحكم، امرأة هشام قلادة فيها جوهر، فأعجبت هشاماً، فأهدى لهشام قلادة أخرى، فاستعمله على خراسان»[٣].
- **عاصم بن عبدالله**، عام ١١٥هـ/ ٧٣٣م، بعد وفاة الجنيد[٤].
- **خالد بن عبدالله** من جديد، بعد أن عزل عاصم عنها، فولّى خالد أخاه أسد بن عبدالله مرة ثانية، عام ١١٧هـ/ ٧٣٥م[٥].
- **نصر بن سيار**، عام ١٢٠هـ/ ٧٣٧م[٦] وذلك بعد أن عزل عنها خالد بن عبدالله، وسبب ذلك كما يورد الطبري هو أن خالداً كان

(١) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ١٥٢- ١٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص ١٥٥.
(٣) المصدر نفسه، ج٨، ص ١٦٤.
(٤) المصدر نفسه، ج٨، ص ١٧٩.
(٥) المصدر نفسه، ج٨، ص ١٨٣.
(٦) المصدر نفسه، ج٨، ص ٢١٩.

قد حصّل الأموال الكثيرة من خلال ولايته حتى أن ولده يزيد كان من كبار الأغنياء، «كان خالد يقول لابنه يزيد: ما أنت بدون مسلمة بن هشام، فإنك لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها أحد: سكرْتُ دجلة ولم يتكلف ذلك أحد، ولي سقاية مكة وولي ولاية العراق»[1].

وقد ثبت الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ/ ٧٤٢-٧٤٣م) نصر بن سيار على خراسان واستمر عليها حتى سقوط الخلافة الأموية[2].

بلاد ما وراء النهر والخلافة العباسية

استمرت سياسة الدولة العباسية في علاقتها ببلاد ما وراء النهر على ما كانت عليه خلال فترة حكم الدولة الأموية، كما واجه العباسيون الأطماع الصينية الساعية إلى التدخل في بلاد ما وراء النهر والسيطرة على طرق التجارة التي تمرُّ في أراضيها، فكانت الصين ملاذاً للخارجين على الولاة العباسيين، كما كانت تتدخل في الصراعات التي تقوم بين حكام ما وراء النهر لكسب ود بعض الأمراء إلى جانبها، ومن ذلك عندما وقع الخلاف بين إخشيد فرغانة وملك الشاش (عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م) حيث استمد الإخشيد الدعم من الصين التي أمدته بمئة ألف مقاتل حاصروا ملك الشاش حتى اضطر إلى

(١) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص ٢١١ - ٢١٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٣٩٧.

الرضوخ لملك الصين، إلا أن أبا مسلم الخراساني وجه إلى حربهم زياد بن صالح، فأنزل بهم الهزيمة وقتل منهم وأسر، وفرَّ الباقي إلى الصين[١].

أما أول والٍ عباسي على خراسان وما وراء النهر، فهو أبو مسلم الخراساني (ت١٣٧هـ/ ٧٥٤م)[٢]. وبعد مقتله تولاها عدد من الولاة العباسيين حتى بداية العصر العباسي الثاني، ولكل عصر رجاله.

فقد قسَّم المؤرخون تاريخ الدولة العباسية إلى ثلاثة عصور، يذكرها الثعالبي (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) قائلاً: «إن لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة، فالفاتحة المنصور والواسطة المأمون والخاتمة المعتضد»[٣].

كما يقسمها شوقي ضيف إلى: عصر النفوذ الفارسي، وعصر النفوذ التركي، ومن ثم عصر الانحطاط[٤].

وقد شهد العصر العباسي الثاني تحولاً في مقاليد الحكم، من نفوذ فارسي طغى على العصر العباسي الأول، إلى نفوذ تركي في العصر العباسي الثاني[٥].

فقد عرف العصر العباسي الأول عناصر فارسية وصلت إلى

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٣، ص ٥١٤.

(٢) الطبري، المصدر السابق، ج٩، ص ١٢٤.

(٣) الثعالبي، لطائف المعارف، نشردي يونغ (ليدن ١٨٦٧)، ص ٧١.

(٤) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، القاهرة: دار المعارف،ط١٢، ص ٥٥.

(٥) المرجع نفسه، ص ٥٠.

أعلى المراتب داخل الدولة، فكان الوزراء والقادة من الفرس، إلا أن العباسيين أزالوهم عن السلطة، فكانت على سبيل المثال «نكبة البرامكة»، و«نكبة بني سهل»، والتي أتت بعد تخوف الخلفاء العرب من قوة النفوذ الفارسي وطغيانه مما يهدد كرسي الخليفة العربي نفسه، فكان صراع بين عرب يسعون إلى استعادة نفوذهم داخل الدولة وفرس يسعون إلى إعادة أمجاد دولتهم[١].

ومع قيام الثورات على الخلافة العباسية، وكان أبرزها ثورة «بابك الخُرمي» في أذربيجان، التي دامت حوالى عشرين عاماً، وهو من الفرس المجوس[٢] إلى أن قضى عليه المعتصم العباسي(٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣- ٨٤٢م)[٣].

أخذ المعتصم يسعى إلى الحصول على قوة جديدة غير فارسية تكون داعمة لحكومته وللخلافة العباسية يستقوي بها على العاصين والمخالفين، فلم يجد أفضل من الأتراك، الذين كانوا يفدون على بغداد ومناطق العراق من بلاد ما وراء النهر، فعمد المعتصم إلى شراء الرقيق التركي بكثرة من سمرقند وفرغانة وأشروسنة، إلى أن بلغ عددهم حوالى عشرين ألفاً[٤].

---

(١) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٩.

(٢) ابن الاثير، الكامل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٤٥.

(٤) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣، ج ٢، ص ٢٣٣.

ونظراً إلى طباع الأتراك الغليظة وأسلوب تعاملهم الفظ مع السكان العرب، بنى لهم المعتصم مدينة سامراء حيث انتقل معهم إليها[١].

هذه النقلة النوعية، من عنصر فارسي مثقف متعلم ساعد على إيجاد نهضة داخل الدولة العباسية، إلى عنصر تركي بدوي، «لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة، وإنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس»[٢].

وهم من أصبحت بيدهم السلطة من إدارية وعسكرية وتولوا أنحاء واسعة من الدولة[٣]. مما ساعد على انحطاط الدولة العباسية، حتى أصبح الخلفاء من بعد المعتصم، مسخّرين لهم، حيث طغت أسماؤهم على اسم الخليفة نفسه. فظهر على سبيل المثال القائد التركي «أشناس» الذي تولى مصر وكانت بيده تولية الولاة عليها، كما دعي له على منابرها[٤].

ومع وصول الواثق العباسي (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م)

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٣.

(٢) شوقي ضيف، تاريخ الأداب العربي في العصر العباسي الثاني، المرجع السابق، ص ١٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣، ج٢، ص ٢٣٢.

توسع نفوذ أشناس التركي، فأصبح هو الآمر والناهي على أنحاء الدولة العباسية[1].

ومع موت أشناس، تولى تركي آخر هو «إيتاخ» كور دجلة وخراسان والسند[2].

وتوسع نفوذه ليحل مكان أشناس كأقوى شخصية عسكرية وسياسية داخل الدولة العباسية[3].

اتخذ النفوذ التركي أبعاداً أوسع مع عدم قيام الواثق باتخاذ ولي للعهد من بعده، ما فسح في المجال أمام القادة الأتراك الأقوياء: إيتاخ ووصيف وبُغا الكبير، على حمل كبار الأسرة العباسية على مبايعة المتوكل(٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م)، بعد موت الواثق عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م[4].

وقد ساهم ذلك في رفع شأن القادة الأتراك الذين أصبحوا، إلى جانب نفوذهم العسكري والسياسي، هم من يولون الخليفة، ليتحولوا بالتالي إلى الحكام الفعليين داخل الدولة، ينصبون، ويقيلون، ويقتلون الخليفة متى شاؤوا، ويعينون الولاة والموظفين والقادة[5].

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر، د.ت، ج٢، ص ٤٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٨١.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٨١.

(٤) الطبري، المصدر السابق،ج١١، ص ١٤٥.

(٥) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، المرجع السابق، ص ١٢.

وقد حاول الخلفاء العباسيون وضع حدٍّ للنفوذ التركي المتنامي هذا عبر الإيقاع بين القادة الأتراك، كما جرى مع إيتاخ، حين عين المتوكل «وصيفاً» التركي مكانه، بعد أن أرسل إيتاخ إلى مكة، ومع عودة هذا الأخير تولى وصيف الإيقاع به وسجنه ليتوفى في السجن بعدها عام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م[١].

ثم حاول المتوكل مرة ثانية الإيقاع بين وصيف وبُغا الكبير، وأرفق ذلك بنقل كرسي الخلافة من سامراء نحو دمشق عام ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م[٢]، ثم إلى «الماحوزة» التي تقع إلى الشمال من سامراء، كما شكلَّ قوة من الجند العرب لحمايته بلغت اثني عشر ألفاً[٣].

إلا أن القادة الأتراك انتبهوا إلى نيات المتوكل فاتفقوا مع ولده وولي عهده المنتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م)، على قتل المتوكل، وهو ما جدر، حيث قتلوه مع وزيره الفتح بن خاقان عام (٢٤٧هـ/ ٨٦١م)[٤].

يصور المؤرخ ابن الطقطقي الواقع الذي آلت إليه الخلافة العباسية حينئذ بقوله: «استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على

---

(١) الطبري، المصدر السابق، ج١١، ص ١٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١١، ص ١٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١١، ص ١٧٨.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، تحقيق سعيد اللحام، بيروت: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠، ج٤، ص ١٢٤.

المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاؤوا أبقوه، وإن شاؤوا خلعوه، وإن شاؤوا قتلوه»[1].

ومع موت المنتصر (٢٤٨هـ/ ٨٦٢م) بعد ستة أشهر من خلافته[2] اتفق القادة الأتراك: بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بُغا الكبير، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقب بالمستعين(٢٤٨-٢٥٢هـ/ ٨٦٢-٨٦٩م)[3].

ومع محاولة المستعين الانتقال من سامراء نحو بغداد للتخلص من النفوذ التركي عمدوا إلى خلعه، وعينوا المعتز بالله ولي عهد المتوكل بعد المنتصر (٢٥٢- ٢٥٥هـ/ ٨٦٦-٨٦٩م)[4].

فظهر خليفتان، واحد في بغداد مخلوع، وآخر في سامراء معين، لتدور الحرب بينهما ويضطر المستعين إلى ترك بغداد بعد أن حوصر فيها، ويقتل فيما بعد في «واسط»[5].

ومن جانبه حاول المعتز التخلص من الأتراك، عبر كسب ود الفراغنة والمغاربة عليهم، واستطاع أن يقتل وصيفًا وبُغا الشرابي الصغير، وفي ذلك يقول المسعودي: «ولما رأى الأتراك إقدام المعتز

---

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ص ٢٣٢.

(٢) ينقل المسعودي أن الأتراك قتلوه بعد أن أدركوا غايته من الفتك بهم، المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ١٣٦.

(٣) الطبري، المصدر السابق، ج١١، ص ٢٠٤.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج٤، ص ١٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٦٥-١٦٦.

على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في فنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم...»[1].

ومع وقوف القادة الأتراك صفاً واحداً، طلبوا من المعتز أن يخلع نفسه، ففعل، وبايعوا محمد بن الواثق ولقب بالمهتدي (٢٥٥-٢٥٦هـ/ ٨٦٩-٨٧٠م)، ومن ثم قتلوا المعتز[2].

ومع محاولة الواثق التخلص من القادة الأتراك، قتلوه أيضاً عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م[3]، بعد مرور عام واحد على تسلمه الخلافة.

ثم بايعوا المعتمد أحمد بن المتوكل (٢٥٦-٢٧٩هـ/ ٨٦٠-٨٩٢م).

إلا أن عوامل عدة ساهمت في تراجع النفوذ التركي موقتاً، مما ساهم في استعادة الخليفة لبعض نفوذه وفي ضعف الأتراك وانشغالهم عما يحصل داخل قصر بغداد، ومن هذه العوامل «ثورة الزنج»، وبروز الموفق أخو المعتمد، وكان شخصية قوية، قاد الجيش في قتال «الزنج» وانتصر عليهم عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م[4].

بانتصار الموفق عادت السلطة الفعلية إلى المعتمد وأخيه الموفق، وضعف شأن القادة الأتراك وكانوا حينئذ: «يارجوخ وكينعلغ وبكتمرين وطاشتمر»[5].

---

(١) المسعودي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٨٦-١٨٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٤، ص ٥٣١.

(٥) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، المرجع السابق، ص ١٥.

لقد تحول الموفق إلى الشخصية الأقوى في الدولة العباسية، حتى أن قادة الجند، وبعد موت الموفق عام ٢٧٨هـ/ ٨٩١م، بايعوا ولده من بعده، حيث اجتمع القواد «... وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد، ولقب بالمعتضد بالله، وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض... واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولى ما كان أبوه يتولاه»[١].

وهذا ما دفع الخليفة المعتمد وتحت ضغط قادة الجيش إلى أن يخلع ولده المفوض ويجعل ولاية العهد للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق[٢].

وبعد عام واحد توفي المعتمد، وتسلم المعتضد ابن الموفق الخلافة (٢٧٩- ٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م)، فخضع له قادة الترك، واستطاع المعتضد القبض على كبير قادة الترك بكتمر بن طاشتمر عام ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م، فسجنه وصادر أمواله وأملاكه[٣].

واستمر الأتراك يخضعون من بعده لولده الخليفة المكتفي (٢٨٩- ٢٩٥هـ/ ٩٠٢- ٩٠٨م)[٤].

ومع موت هذا الأخير، وصل إلى الخلافة شقيقه المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م)، وكان لا يزال في الثالثة عشرة من

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، الكامل ج٤، ص ٥٥٩.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص ٥٦٤.
(٣) الطبري، المصدر السابق، ج١٢، ص ٢١٨.
(٤) فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، عمان: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٣، ج٢، ص ٥٧.

عمره، فعمد داود بن الجراح، وهو أحد الفقهاء إلى أخذ البيعة لعبدالله بن المعتز وتقلّد ابن الجراح الوزارة، إلا أن القادة الأتراك سرعان ما ثاروا وعلى رأسهم «مؤنس»، فقتلوا الخليفة المعين ووزيره ابن الجراح، وأعيدت الخلافة إلى المقتدر[1].

بذلك يستعيد الأتراك النفوذ الذي كان لهم من قبل، فيعزل مؤنس المقتدر بعد خلاف معه، ويولي أخاه محمد القاهر بالله(٣٢٠-٣٢٢هـ/ ٩٣٢-٩٣٤م) ومن ثم يقتل المقتدر[2].

إلا أن القاهر استطاع قتل مؤنس وبعض القادة الأتراك[3]، لكن عمله هذا لم ينجه من غضب باقي الأتراك الذين سرعان ما خلعوه عام ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م وسملوا عينيه[4].

ونصّب الأتراك من بعده الراضي بالله أحمد بن المقتدر (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤- ٩٤٠م) وفي عهده عادت السلطة إلى القادة الأتراك وكان للخليفة الاسم فقط[5].

ومع موت الراضي بالله، خلفه أخوه المتقي بالله (٣٢٩-٣٣٣هـ/ ٩٤٠-٩٤٤م)، ولكن القادة الأتراك سرعان ما سملوا عينيه وقتلوه[6].

وسبب ذلك، هو مكاتبته الإخشيد محمد بن طغج، حاكم الدولة

(١) الطبري، المصدر السابق، ج١٢، ص ٢٧٩- ٢٨٠.
(٢) المصدر نفسه، ج١٣، ص ١٠٢و ١٠٦.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج٤، ص ٣١٢.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص ٣١٢.
(٥) فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، المرجع السابق، ج٢: ص ٦١- ٦٢.
(٦) ابن الطقطقي، الفخري، المصدر السابق، ص ٢٦٨.

الإخشيدية في مصر، «يشكو حاله ويستقدمه إليه»، لمساعدته على القائد التركي»توزون»، إلا أن هذا الأخير سرعان ما قضى عليه بعد أن علم عن طريق عيونه التي كانت تحيط بالمتقي بمخطط الخليفة[١]، وولاها من بعده المستكفي بالله بن المكتفي(٣٢٩-٣٣٤هـ/ ٩٤٤-٩٤٥م)، الذي أعطى لقب إمرة الأمراء إلى معز الدولة البويهي (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)، ليبدأ العصر البويهي، ويزول النفوذ التركي عن كاهل الدولة العباسية[٢].

العصر العباسي الأخير

مع نهاية العصر العباسي الثاني ومع الضعف الذي أصاب الخلافة العباسية، عمد بعض حكام الولايات إلى الاستقلال عن بغداد، فظهرت الدويلات على الشكل الآتي:

- بنو بويه في فارس والريّ وأصبهان والجبل.
- السامانيون في خراسان.
- الديلم وضعوا أيديهم على طبرستان ومرجان.
- محمد بن إلياس، وقد تفرد في حكم كرمان.

أما بقية أنحاء الدولة العباسية فقد توزعت بين بني حمدان والبريدي، والقرامطة، والإخشيد، والفاطميين، والأمويين في الأندلس[٣].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٥٠.

(٢) ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص ٢٧٠- ٢٧١.

(٣) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، المرجع السابق، ص ٢٦.

والجدير ذكره، أن بلاد ما وراء النهر كانت طوال الحكم العربي تخضع لخراسان وعاصمتها «مرو»، فكان الوالي عليها في مرو مندوباً من خليفة دمشق ومن ثم بغداد[١].

وكان لبعد المسافة بين هذه الولاية وعاصمة الخلافة، أن أطمع الولاة عليها بالاستقلال، وخصوصاً أن بلاد ما وراء النهر كانت معروفة بوجود المحاربين الأشداء الذين كانوا يسارعون إلى دعم المرتدين على الخلافة[٢].

ولم تعرف ولاية خراسان وما وراء النهر ولاة أقوياء، كنصر بن سيار زمن الأمويين، وأبي مسلم الخراساني زمن العباسيين، حتى أن هذا الأخير اعتبر شخصية أسطورية رفعت من قدر الأتراك ودخل في تاريخ تلك البلاد وقيلت عنه القصص.

يقول فاليري حول العلاقة التي ربطت الأتراك ببلاد ما وراء النهر بأبي مسلم الخراساني أن انضواء أتراك ما وراء النهر وأتراك خوارزم في يسر تحت راية العباسيين السوداء، وتحمسهم كذلك لدعوتهم إنما يستبين في إجلالهم البالغ لذكرى أبي مسلم الخراساني في أن يكسب إلى صفه وفي وقت قصير، أتراك بلاد ما وراء النهر، حتى أن هؤلاء نسجوا القصص عن أبي مسلم تقرنه بالخليفة علي ابن أبي طالب[٣].

---

(١) فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٧٨.

كما عرفت هذه البلاد عدداً من الثورات التي أنهكت الخلافة العباسية، ومنها:

١- ثورة المقنع أو هاشم بن حكيم، «كان رجلاً أعور، قصيراً، من أهل مرو، ويسمّى حكيماً، وكان اتخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه لئلا يرى، فسمي المقنع وادّعى الألوهية.. وكان يقول: إن الله خلق آدم، فحوّل في صورته، ثم في صورة نوح، وهكذا هلّمَّ جرّاً إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إلى هاشم، وهاشم، في دعواه، هو المقنع، ويقول بالتناسخ...»[١].

واستطاع المقنع أن يبسط نفوذه على مناطق من بلاد ما وراء النهر، إلى أن قتل على يد جيش عباسي على رأسه معاذ بن مسلم عام ١٦١هـ/ ٧٧٧م[٢].

٢- ثورة رافع بن الليث، حفيد نصر بن سيار، الذي قام على هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) في سمرقند عام ١٩٠هـ/ ٨٠٥م[٣].

واستمر رافع في ثورته ولم يستطع العباسيون إخضاعه إلى أن قام الصراع بين الأمين والمأمون، حيث التجأ رافع إلى المأمون وانضم إليه، عام ١٩٤هـ/ ٨٠٩م[٤].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٣، ص ٦٣٧ - ٦٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص ٦٤٥.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ٧٨.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٠٠.

ومع خلافة المأمون العباسي(١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م)، وجد في الأسرة السامانية ملاذه الوحيد لاستعادة الدولة نفوذها على بلاد ما وراء النهر، فدعم هذه الأسرة ومكّنها من أن تحكم في بلاد ما وراء نهر جيحون[١].

بلاد ما وراء النهر والدول المستقلة

الدولة الطاهرية: (٢٠٧- ٢٥٩هـ/٨٢٢-٨٧٢م)

مع دخول المأمون العباسي بغداد في آب من العام (٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، وخروجه من خراسان، أعلن الخوارج الثورة فيها، فبعث المأمون إليهم بقائده طاهر بن الحسين (ت٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، الذي استطاع إنهاء ثورة الخوارج، واستقل بخراسان وما وراء النهر عام (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، لتظهر الدولة الطاهرية التي تتالى عليها أبناء طاهر بن الحسين وأحفاده طوال قرن من الزمان[٢].

واتخذ الطاهريون من نيسابور عاصمة لهم، وفي عهدهم ظهرت المدارس في بخارى وسمرقند، كما شجعوا الحركة العلمية، واعتمدوا اللغة العربية في الكتابة والأدب والشعر[٣].

واستمرت صلة الدولة الطاهرية بالخلافة العباسية جيدة،

---

(١) فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق ص ٩١.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٣) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤، ص ١٠٤.

واستمروا في إرسال الضرائب إليها، وحتى بعد نهاية حكمهم لخراسان وما وراء النهر ظهر منهم قادة تولوا شرطة بغداد[١]، لتسقط هذه الدولة على يد يعقوب بن الليث الصفار (ت٢٦٥هـ/ ٨٧٨م)، الذي أقام الإمارة الصفارية إلى الشرق من إيران، ووصلت في حدودها إلى كرمان وأفغانستان والسند[٢].

الدولة الصفارية: (٢٥٣-٢٩٨هـ/٨٦٧-٩١٠م)

تعود إلى يعقوب بن ليث الصفار (٢٥٣-٢٦٥هـ/ ٨٦٧-٨٧٨م)، وقد ظهرت في سجستان، وحكمت بلاد فارس واحداً وأربعين عاماً (٢٥٣-٢٩٦هـ/ ٨٧٦-٩١٨م)، ويعتقد أن يعقوب، مؤسس هذه الدولة، كان يعمل في صناعة النحاس، ونال الحظوة عند والي سجستان فقاد جيشه[٣]، كما خلف هذا الوالي على سجستان وأعلن نفسه سلطاناً، وتوسعت رقعة نفوذه ليضم كل فارس إلى ممتلكاته وأقاليم الهند القريبة منها، كما هدد بغداد[٤].

إلى أن سقطت هذه الإمارة على يد الدولة السامانية[٥].

تتالى عليها بعد يعقوب بن الليث الصفار:

---

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٥.

(٢) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٢١٦- ٢١٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص ١٢٧ ,٣٩٨- الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٤) الإصطخري، مسالك الممالك، المصدر السابق، ص٢٤٥.

(٥) فيليب حتي، تاريخ العرب، بيروت: دار غندور، ط٥، ١٩٧٤، ص ٥٣٧.

- عمر بن الليث الصفار (٢٦٥-٢٨٧هـ/ ٨٧٨-٩٠٠م)[١].
- طاهر بن محمد بن عمرو (٢٨٧-٢٩٦هـ/ ٩٠٠-٩٠٨م)[٢].
- الليث بن علي بن الليث (٢٩٦-٢٩٧هـ/ ٩٠٨-٩٠٩م).
- المعدل بن علي بن الليث (٢٩٧-٢٩٨هـ/ ٩٠٩-٩١٠م)[٣].

وبالرغم من اهتمام الإمارة الصفارية وحكامها بخوض الحروب وعدم وجود عاصمة لهم، فإن الأسرة الصفارية اهتمت بالنواحي العلمية أيضاً، وبرز من هذه الاسرة، يعقوب بن الليث الصفار الذي شجع العلم وأنفق عليه[٤].

الدولة السامانية (٢٦٦-٣٨٩هـ/ ٨٧٤-٩٩٩م)

كانت بلاد ما وراء النهر بالنسبة للسامانيين كخراسان عند الطاهريين، وقد لعب السامانيون دور العمال لدى الطاهريين في بلاد ما وراء النهر، ومع انتهاء الدولة الطاهرية، ولّى الخليفة المعتمد السامانيين ما وراء النهر، لتصبح آسيا الوسطى في عهدهم مركزاً للإشعاع الفكري والروحي للبلاد المحيطة بها[٥].

وتعود الأسرة السامانية إلى أسرة فارسية وقد تقرب أبناؤها من

---

(١) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، القاهرة: الدار العالمية، ط١، ١٩٨٦. ج١، ص ٢٥٤.

(٢) المرجع نفسه،ج١، ص ٢٥٦.

(٣) المرجع نفسه، ج١، ص ٢٥٧.

(٤) الزبيدي، طبقات النحويين، المصدر السابق، ص ٩٤.

(٥) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٦٢.

الخليفة المأمون العباسي فولاهم بلاد ما وراء النهر، وكان سامان جدهم على الديانة الزرادشتية، فارتد عنها إلى الإسلام، على يد أسد بن عبدالله القسري والي خراسان في العهد الأموي فسمى ولده أسداً تيمناً به. كما تولى أولاد أسد بن سامان نواحي من بلاد ما وراء النهر في عهد المأمون العباسي، فكان نوح بن أسد على سمرقند عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، وأحمد بن أسد على فرغانة، ويحيى بن أسد على الشاش وأشروسنة، ومع وصول طاهر بن الحسين إلى خراسان وما وراء النهر أقرهم على ما في أيديهم[١].

واشتهر من السامانيين إسماعيل بن أحمد بن أسد (ت٢٩٥هـ/ ٩٠٧م)، وأخوه نصر (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، الذي تولى سمرقند بعد والده، وثبته الخليفة المعتمد العباسي على بلاد ما وراء النهر عام (٢٦١هـ/ ٨٧٤م) لتظهر الدولة السامانية.

إلا أن خلافاً قام بين الأخوين: إسماعيل ونصر، ونجح إسماعيل في بسط نفوذه على أملاك أخيه ليتفرد في الحكم.

وفي عهد هذا الأخير ظهرت الدولة السامانية التي أزالت الدولة الصفارية، واستقلت في حكم بلاد ما وراء النهر[٢].

يصف ابن الأثير إسماعيل الساماني مظهراً ميزاته «إنه كان خيّراً يحب أهل العلم والدين، ويكرّمهم»[٣].

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، بيروت: دار الجيل، ط ١٤، ١٩٩٦، ج٣، ص ٨٠.

(٢) المرجع نفسه، ج٣، ص٨٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٤، ص ٤٥٨.

ومع وفاة إسماعيل، ثبت الخليفة المكتفي ولده أبا نصر أحمد ابن إسماعيل (ت٣٠١هـ/ ٩١٣م)، على ما كان في يد والده.

وفي عهد هذا الأخير سقطت الدولة الصفارية وسيطر السامانيون على سجستان[١].

ثم تولى من بعده ولده أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني (ت٣٣١هـ/ ٩٤٢م)، وفي عهده وصل نفوذ الدولة السامانية إلى كرمان، وجرجان، وأبهر، وقزوين، وقم، وهمذان، ونهاوند[٢].

ومع تسلم نوح بن نصر الساماني (٣٣١- ٣٤٣هـ/ ٩٤٢- ٩٥٤م)، استعاد بلاد الري والجبل من ركن الدولة ابن بويه الذي كان قد دخلها من قبل[٣].

وتتالى من بعده عدد من أفراد العائلة السامانية وهم:

عبد الملك بن نوح عام (٣٤٣هـ/ ٩٥٤م)، ثم أخوه منصور بن نوح عام (٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، ونوح الثاني بن منصور (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)، وفي عهد هذا الأخير زالت الدولة السامانية بعد ثورة قامت في وجههم من قبل بعض الأمراء عام (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م)[٤].

مع ضعف السامانيين وجد محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ/

---

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، المصدر السابق، ص ١٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٧.
(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ج٣، ص ٨٤.
(٤) النرشخي، تاريخ بخارى، المصدر السابق، ص ١٣٩و ١٤٠ و ١٤٢.

٩٩٨-١٠٣٠م)، الفرصة مناسبة ليستولي على نيسابور وبخارى ويزيل نفوذ السامانيين[١].

وامتازت هذه الفترة بدخول الصوفية إلى بلاد ما وراء النهر، ليتحول رجالها إلى إحدى القوى المؤثرة في حياة تلك البلاد، وتعاظم دور الفقهاء في توجيه أمور رجال السلطة، وتمّ التوفيق بين الفقهاء والصوفية[٢].

الدولة الغزنوية (٣٥١- ٥٨٢هـ/ ٩٦٢-١١٨٦م)

تعود الأسرة الغزنوية إلى سبكتكين (٣٦٦-٣٨٧هـ/ ٩٧٦-٩٩٧م) وكان من غلمان أبي إسحق بن البتكين، صاحب غزنة من قبل السامانيين، ومع موت هذا الأخير استقل سبكتكين بغزنة وأخذ يتوسع منها بانياً دولته[٣].

بعد وفاة سبكتكين تسلم الإمارة ولده إسماعيل (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)، إلا أن أخاه محموداً أبعده بعد قتال ليستولي على الإمارة.

وبوصول محمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١هـ/ ٩٩٧-١٠٣٠م). بدأت الدولة الغزنوية فعلياً[٤].

ينقل حسن إبراهيم حسن عن المؤرخ براون قوله: «إن قوة محمود الغزنوي التي لا تحد قد ظهرت فجأة، وإنه بدأ عهده بوضع

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ج٣، ص ٨٨.

(٢) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج٢، ص١.

(٤) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤.

يده على مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه سبكتكين، ولكنه لم يلبث أن غزا الهند اثنتي عشرة مرة، وضمّ إلى مملكته بلاد البنجاب، وأخضع بلاد الغور، وبلاد ما وراء النهر، ووالى لبني بويه ضرباته التي انتهت باستيلائه على أصبهان»[1].

ومع ضعف الأسرة السامانية، هاجمهم وهزم جيش السامانيين في مرو عام (٣٨٩هـ/ ٩٩٨م)، ودخل خراسان، ليتخذ من نيسابور عاصمة له وخطب للخليفة القادر العباسي[2].

ومن أبرز انجازاته:

١- ضم سجستان عام (٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م).

٢- عمد إلى إزالة نفوذ البويهيين في الري وبلاد الجبل، وقزوين.

٣- أعدم العديد من الباطنية (الإسماعيلية).

٤- أصدر أمراً بنفي دعاة المعتزلة إلى خراسان، وأمر أيضاً بإحراق كتب الفلسفة والمعتزلة[3].

٥- شنّ حرباً على الأتراك الغز في صحارى بخارى[4].

٦- عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) لاحق المعتزلة، والشيعة، والإسماعيلية، والقرامطة، والجهمية، والمشبهة، فصلب قسماً منهم ونفى القسم الآخر[5].

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ج٣، ص ٩٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٥، ص ٥٣٦.

(٣) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج٣، ص ٩٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٥٦٤.

(٥) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج٣، ص ٩٦.

٧- قام بعدة حملات جهادية بين عامي (٣٩٢ و٤١٥هـ/ ١٠٠٠-١٠٢٤م)، بغية نشر الإسلام في بلاد الهند، من بلاد ما وراء النهر التي استولى عليها بعد سقوط الدولة السامانية ولقب بالغازي[١].

٨- حقق نصراً حاسماً عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٣م، على جيوش أمراء الهند[٢].

ومن أبرز إنجازات محمود الغزنوي أنه حكم جزءاً من بلاد الهند، وفي ذلك يقول ستانلي بول: «إن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقراً لهم، يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد»[٣].

مع وفاة محمود الغزنوي انتقلت السلطة من بعده إلى ولده محمد الذي لقب بجلال الدولة، إلا أن أخاه مسعود بن محمود[٤]، سيطر على السلطة ولقب بالناصر لدين الله (٤٢٢-٤٣٢هـ/ ١٠٣٠-١٠٤٠م).

وتولى من بعده ولده مودود بن مسعود (٤٣٢-٤٤١هـ/ ١٠٤١-١٠٤٩م)، وفي عهده تعرضت الدولة الغزنوية إلى هجمات السلاجقة عام ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م، بقيادة ألب أرسلان، وانتصروا عليهم[٥].

لقد كان على مودود مواجهة ملوك الهند، والأتراك الغز، والسلاجقة في الوقت نفسه، إلا أنه مات، ليتولى من بعده ولده

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٤٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٥٧٦.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ج٣، ص ١٠١.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(٥) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج٢، ص١٢.

عبد الرشيد فروخ زاد (٤٤١-٤٥١هـ/ ١٠٤٩-١٠٥٢م) مدة خمسة أيام، ليبدأ الصراع على الكرسي بين أفراد الأسرة الغزنوية فيصل من بعده عمه أبو الحسن علي بن مسعود الأول.

إلا أن عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود الغزنوي دعا إلى نفسه، فأطاعه الجند، وتلقب بعز الدولة(١).

قام عبد الرشيد بعد وصوله إلى الإمارة بطرد السلاجقة من خراسان، إلا أن طغرل بك السلجوقي قتله عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، وتزوج ابنة مسعود الأول واستولى على الدولة الغزنوية(٢).

إلا أن قادة عبد الرشيد ثاروا وقتلوا طغرل وأعادوا السلطة إلى فروخ شاه من جديد(٣).

ومع وفاة هذا الأخير تولى مكانه أخوه إبراهيم بن مسعود(٤٥١-٤٢٩هـ/ ١٠٥٩-١٠٩٨م) ومن بعده ولده مسعود بن إبراهيم(٤٩٢-٥٠٨هـ/ ١٠٩٨-١١١٤م)(٤).

والجدير ذكره، أن هذه الدولة التي امتد نفوذها من لاهور في الهند إلى سمرقند وأصبهان، مثّلت انتصاراً للعنصر التركي، وفي ذلك يقول فيليب حتي: «وقد كان ظهور الغزنوية أول نصر للعنصر التركي على العنصر الإيراني في ميدان الزعامة في العالم الإسلامي، ومع ذلك فإن الدولة الغزنوية لم تختلف كثيراً عن الدولة السامانية

---

(١) الصرف، المرجع السابق، ج٢، ص ١٤-١٥.

(٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ١٠٨.

(٣) المرجع نفسه، ج٣، ص ١٠٨.

(٤) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج٢، ص ١٦.

أو الدولة الصفارية، فقد كانت تستند إلى السيف حتى إذا وهنت اليد التي كانت تحمل السيف ضعفت الدولة وتقوض كيانها»[١].

الدولة الإليكية (٣٨٣-٤٩٦هـ/٩٩٣-١١٠٢م)

لا يعرف تاريخ محدد لقيام هذه الدولة، إلا أن ملكها عبد الكريم أعلن إسلامه وتسمى بعبد الملك واتّبع بني سامان، وكان حاكماً على مناطق في تركستان وعاصمته كاشغر. ومع ضعف الدولة السامانية، كان على الدولة الإيليكية شهاب الدولة هارون بن سليمان، الملقب بقراخان، الذي عمد إلى السيطرة على أملاك بني سامان ودخل بخارى وضمها إلى إمارته فترة من الزمن[٢].

مع موت قراخان، تولى أخوه إيلك خان (٣٨٣-٤٠٣هـ/ ٩٩٣-١٠١٢م)، الذي يعتبر الأقوى في تاريخ هذه الدولة، وقد استطاع دخول بخارى عام (٣٨٩هـ/ ٩٩٨م)، وإنهاء حكم الدولة السامانية تماماً، وسيطر على بلاد ما وراء النهر[٣].

تولى من بعد إيليك خان عدة أمراء من الأسرة الإيلكية، أبرزهم:

- طغان خان (٤٠٣-٤٠٨ هـ/ ١٠١٢-١٠١٧م[٤].
- أرسلان خان وقدرخان (٤٠٨-٤٢٣ هـ/ ١٠١٧-١٠٣١م)[٥].

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٤١.

(٢) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج٢، ص ٣٧.

(٣) المرجع نفسه، ج٢، ص ٣٨.

(٤) المرجع نفسه، ج٢، ص ٣٩.

(٥) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٠.

- بقراخان بن قدرخان (٤٢٣-٤٣٩ هـ/ ١٠٣١-١٠٤٧م).
- طغرل خان بن قدرخان (٤٣٩-٤٥٥هـ/ ١٠٤٧-١٠٦٣م)[١].
- طغرل تكين بن طغرل خان (٤٥٥-٤٩٦ هـ/ ١٠٦٣-١١٠٢م)[٢].

وفي عهد هذا الأخير، هاجم السلاجقة وعلى رأسهم سنجر السلجوقي أملاكهم واستولى على تركستان ليضمها إلى دولته، ومع موت طغرل تكين انتهت الدولة الإيليكية[٣].

الدولة السلجوقية

مع ازدياد النفوذ التركي داخل الدولة العباسية، سعى بعض الأتراك إلى الاستقلال ضمن الولايات، فعرفت الدولة العباسية ظهور الدويلات التي دامت ما بين الأعوام (٢٥٤-٥٨٢هـ/ ٨٦٨-١١٨٦م).

ومن بين هذه الدويلات، الدولة السلجوقية، وهي تعود إلى سلجوق بن يكاك، وهو أمير تركي كان يخدم بعض أمراء تركستان (بلاد ما وراء النهر) ومنهم السامانيون.

أعلن سلجوق إسلامه ولحق به سائر أبناء قبيلته، وسار من تركستان (بلاد ما وراء النهر) مع ما معه من جند وأتباع باتجاه بغداد، وقطعوا نهر جيحون وبدأوا بالتوسع غرباً حتى دخلوا العاصمة

---

(١) الصرفي، المرجع السابق، ج٢، ص٤١.
(٢) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٢.
(٣) المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٢.

العباسية، ليمتد نفوذهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض المتوسط[1].

يقول بروكلمان: «... أظهر البويهيون عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في قلب الإمبراطورية، فلم يلبث الفرس، هنا أيضاً، أن طُردوا على يد الأتراك، ذلك أن عشيرة جديدة نجمت بين الدولة الإيليك - خانية بتركستان وسلاطين غزنة، ثم تعاظمت قوتها حتى لقد انتهت إلى السيطرة على الشرق الأدنى بكامله»[2].

ويعود السلاجقة إلى قبائل الغز، الذين عرفوا بالتركمان بعد دخولهم في الإسلام، واستطاعوا عبر حملات وغزوات متتالية من الوصول إلى أذربيجان والعراق، وتمكن حفيد سلجوق طغرل باك وشقيقه جغري بك داوود، من السيطرة على خراسان، ومن ثم على خوارزم وطبرستان، ثم تقدموا باتجاه عراق العجم وأنهوا الدولة البويهية في فارس، وأثناء تقدمهم باتجاه العراق اتخذوا من الريّ عاصمة لهم، ومن بعدها أصفهان[3].

في الواقع، فإن الخلافة العباسية في تلك المرحلة، كانت ضعيفة جداً، ودولتها ممزقة بين الأمويين في الأندلس، والفاطميين في مصر وشمال أفريقيا، والزعماء العرب في شمالي سوريا والعراق، والدويلات في فارس وما وراء النهر، وتفاقم الخلاف بين السنة الشيعة[4].

---

(١) أرمينوس فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ١٢٧- ١٢٩.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٣) بروكلمن، المرجع نفسه، ص ٢٧٢.

(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٤٩- ٥٥٠.

ومع تقدم السلاجقة ووصول طغرل بك (٤٢٨-٤٥٥هـ/ ١٠٣٦-١٠٦٣م) إلى الغرب من بغداد ودخلوها عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) لينتهي عهد بني بويه، ويبدأ عهد سلاطين بني سلجوق، واستقبل الخليفة العباسي القائم بأمر الله(٤٢٣-٤٦٨هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥م) طغرل، «وولاه جميع ما ولاه الله من بلاده وخاطبه بملك المشرق والمغرب»[١].

يقول فيليب حتي: «وكان عهد طغرل بك، وابن خيه ألب إرسلان من بعده، وملكشاه بن ألب أرسلان من بعدهما، من ألمع الحقب في تاريخ السيادة السلجوقية على الشرق الإسلامي، وقد عظم جيشهم بما انضم إليه من قبائل الترك النشيطة، فوسع السلاجقة ملكهم في جميع النواحي حتى غدت آسيا الغربية مرة ثانية مملكة إسلامية موحدة، وأخذ جيش الإسلام يسترجع ماضي مجده»[٢].

مع وصول ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م)، توسعت مملكة السلاجقة من كاشغر شرقاً إلى القدس غرباً، ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر، وتميز عهده بالتقدم العمراني والحضاري[٣]، وفي ذلك ينقل ابن خلكان، عن عهد ملكشاه قائلاً: «إن السبل في أيامه كانت ساكنة والمخاوف آمنة تسير القوافل مما

---

(١) فيليب حتي، المرجع السابق، ص ٥٥٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٥٣.

وراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير ويسافر الواحد والاثنان من غير خوف ولا رهب»[١].

ومع موت ملكشاه قامت الحروب بين أبنائه ما أدى إلى إنهاء ملكهم، وكان نظام الإقطاعيات الوراثي قد خلف دويلات متصارعة، سارعت في سقوطهم[٢].

ينقل فيليب حتي عن فترة حكم السلاجقة أنها «الناحية الوحيدة التي ترك فيها السلاجقة والترك العثمانيون في حياة الإسلام الدينية تنحصر في الصوفية، كما تزدهر في طرق الدراويش المزدهرة في بلاد الترك»[٣].

يعتبر عصر ملكشاه من أبرز العصور التاريخية في الإسلام، من ناحية انتعاش الحضارة «ويدين العلم والشعر والصناعة والعمارة بازدهارها جميعاً في إيران، إلى هذا الأمير العظيم، أكثر مما تدين إلى أي واحد من خلفائه»[٤].

وقبل وفاة ملكشاه قسّم الدولة على أبنائه وأقاربه، فكانت خراسان وبلاد ما وراء النهر لولده سنجر[٥].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٧٧، ج٥، ص ٢٨٥.

(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٥٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٥٥.

(٤) فامبري، تاريخ بخارى، ص ١٣٨.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٣٩.

وعن هذا الأخير يقول فامبري: «إن السلطان سنجر (ت٥٥٢هـ/ ١٠٦٠م)، كان آخر سلاطين السلاجقة الذي اهتم بأحوال بلاد ما وراء النهر، وأن هؤلاء السلاطين الأتراك عجزوا عن أن يحتفظوا بكيان دولتهم في «وطنهم القديم فيما وراء جيحون، وهم الذين بلغوا إلى تمكين نفوذهم في كل أنحاء الشرق الإسلامي»[١].

فنفوذ السلاجقة في بلاد ما وراء النهر أخذ يتراجع مع دخولهم إلى إيران والمشرق العربي، وبقي للسلاجقة السلطان الاسمي في بخارى وسمرقند وفرغانة، وكانت السلطنة الفعلية في تلك النواحي بأيدي أمراء محليين من الأويغور ممن حكم تركستان الشرقية[٢] وكانت المحاولة الوحيدة لبسط النفوذ على بلاد ما وراء النهر، من قبل ألب أرسلان، الذي صاهر سليمان، خان سمرقند، في محاولة لضم تلك البلاد سلماً، إلا أن ذلك لم يجدِ نفعاً، وينقل أن ألب أرسلان قام بحملة على ما وراء النهر انتهت بموته، وأن ملكشاه استطاع أن يمد نفوذه حتى فرغانة، إلا أنه يذكر أن حاكم تركستان في عهده كان خضر خان، وكان يضاهيه قوة[٣].

وبالتالي فإن بخارى والجزء الغربي مما وراء النهر اعترفا بالسلاجقة إلا أن القسم الشرقي من وراء النهر لم يعترف بهم، فعمد السلطان سنجر إلى حرب سمرقند عام (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) فدخلت

---

(١) فامبيري، المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤١.

في طاعته، وكانت هذه أول وآخر حرب لسنجر في بلاد ما وراء النهر[١].

حيث إن سمرقند عادت فثارت من جديد عام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م، واضطرت سنجر والسلاجقة إلى الانكفاء عن بلاد ما وراء النهر بالكامل[٢].

أما الأويغور حكام ما وراء النهر في ذلك الوقت، فكان يحكمهم أمير يدعى كورخان[٣] انطلق من الصين الشمالية، (عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م) وتقدم مسيطراً حتى فرغانة وبلاد ما وراء النهر، فواجهه السلطان سنجر الذي هُزم وابتعد عن تلك البلاد، لينتهي نفوذ السلاجقة في بلاد ما وراء النهر نهائياً[٤].

ومع انتهاء حكم أول أسرة تركية في بلاد ما وراء النهر، تعامل السلاجقة مع تلك البلاد بلا مبالاة فيما بعد[٥].

ومع وفاة السلطان سنجر (ت٥٥٤هـ/ ١١٥٧م) ضعف أمر السلاجقة في خراسان، واستفرد الخوارزميون في حكمها[٦].

---

(١) فامبيري، المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي، دمشق: دار إعلام، ط١، ١٩٨٥، ج١، ص ٨٦.

(٤) فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٤٤- ١٤٥.

(٦) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، بيروت: دار النهضة، د. ت، ص ٢٨.

ومع صول إيل أرسلان على رأس الدولة الخوارزمية، شن أول حرب من نوعها على الخطا أصحاب بلاد ما وراء النهر، الذين عبروا نهر جيحون باتجاه خوارزم، وكانت أول هزيمة للخوارزمين أمام الخطا، الذين لم يكملوا هجومهم وتراجعوا إلى ما وراء نهر جيحون[١].

وفي عهد السلطان الخوارزمي شاه محمود بن إيل أرسلان (٥٦٨-٥٦٨هـ/ ١١٧٢-١١٧٢م)، ثار عليه أخوه علاء الدين تكش (٥٦٨-٥٩٦هـ/ ١١٧٢-١١٩٩م)، وقد اعتمد هذا الأخير على دعم الخطا، وهاجموا خوارزم ليتملكها علاء الدين الذي أجرى اتفاقاً معهم يضمن فيه عدم اعتداء أي طرف على الآخر[٢].

والجدير ذكره أن عهد علاء الدين تكش، شهد توسعاً نحو الغرب، كما عمد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م) إلى توليه على ما كان في يد السلاجقة من أملاك[٣] ليتمكن الخوارزميون أخيراً من الانتصار على السلاجقة وقتل طغرل بك الثالث بالقرب من الري عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م[٤].

أما العلاقة مع الخطا، فقد عرفت بعض التوترات فيما بعد، حيث حارب علاء الدين الخطا واستولى على مدينة بخارى عام

---

(١) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ج٢، ص ٢٠٣.

(٣) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٧، ص ٤١١.

٥٩٤هـ/ ١١٩٧م[1] وهو أول تقدم باتجاه بلاد ما وراء النهر من قبل الخوارزميين.

الدولة الخوارزمية: ٥٣٣-٦٢٨هـ/١١٣٨-١٢٣١م

مع نهاية السلاجقة، عرفت بلاد ما وراء النهر صراعاً بين قوى جديدة سعت إلى بسط نفوذها وسيطرتها على تلك البلاد، وبالتحديد بين كورخان الحاكم الأويغوري من جهة، والخوارزميين من جهة أخرى[2].

والخوارزميون يعودون إلى خوارزم، التي أقطعها ملكشاه السلجوقي لأحد قادته ويدعى أنو شتكين، وقد خلف هذا الأخير من بعده ولده قطب الدين عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م.

واشتهر هذا الأخير بالعلم والأدب، فعمد الأمير السلجوقي «حبشي»، إلى توليته على خوارزم وأطلق عليه لقب خوارزمشاه[3].

انقلب خوارزمشاه على السلطان سنجر السلجوقي (٤٧٩-٥٥٢هـ/ ١٠٨٦-١١٥٧م)، وتحالف ولده من بعده، إتسز بن محمد ابن أنو شتكين (٥٣٣-٥٥١هـ/١١٣٨- ١١٥٦م) مع دولة الخطا (القراخطائيين)[*]، التي تقع إلى الغرب من إقليم تركستان، وأنزلوا

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧، ص ٤٣١.

(٢) فامبري، تاريخ بخارى، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٣) الصرفي، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٠.

(*) قبائل الخطا: كانت تسكن في شمال الصين، نزحت عنها في النصف الأول من القرن ٦هـ إلى غرب إقليم تركستان، حيث كونوا دولة عرفت باسم القراخطائيين،=

الهزيمة بالسلطان سنجر عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، واستولوا على بلاد ما وراء النهر فترة من الزمن[١].

إلا أن إتسز أعاد الولاء للسلاجقة خوفاً من بطشهم، واستمر على ولائهم إلى حين وفاته[٢].

بعد إتسز، تسلم ولده إيل إرسلان (٥٥١-٥٦٨هـ/ ١١٥٦-١١٧٢م).

وفي عهد هذا الأخير توفي السلطان سنجر (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) وبوفاته ضعف أمر السلاجقة في خراسان، فاستفرد الخوارزميون بحكمها[٣].

عرف عهد إيل أرسلان أول حرب من نوعها مع الخطا أصحاب بلاد ما وراء النهر، الذين عبروا نهر جيحون باتجاه خوارزم، فكانت أول هزيمة للخوارزميين على أيديهم، ولم يكمل الخطا تقدمهم بل تراجعوا إلى ما وراء نهر جيحون، بعد أن سلبوا ونهبوا[٤].

إن وجود الخطا، البوذيين على الحدود الشرقية للخوارزميين، وغاراتهم لم تدفع هؤلاء إلى التكاتف على مواجهة أخطارهم، بل نجد أن بعض الخوارزميين كانوا يستنجدون بالخطا من أجل السلطة،

= كان ملوكها يلقبون بلقب كورخان (ملك الملوك) ويدينون بالبوذية، فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، بيروت، دار النهضة، د.ت، ص ٦٥.

(١) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٤) الصرفي، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٢.

فمع تسلم السلطان شاه محمود بن إيل أرسلان (٥٦٨-٥٦٨هـ/ ١١٧٢-١١٧٢م)، ثار عليه أخوه علاء الدين تكش (٥٦٨- ٥٩٦هـ/ ١١٧٢-١١٩٩م)، واستنجد هذا الأخير بالخطا، الذين هاجموا خوارزم ليتملكها علاء الدين من أخيه شاه محمود بالقوة[١].

والجدير ذكره أن عهد علاء الدين، شهد توسعاً نحو الغرب، بدلاً من الشرق، وهذا بطبيعة الحال نتيجة لموقف الخطا ودعمهم له. واستطاع علاء الدين أن يستحصل من الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م)، على توليته على ما كان في يد السلاجقة من أملاك[٢]، مقابل أن يتخلص من السلاجقة وسلطانهم طغرل بك الثالث.

وهو ما جرى حيث تمكن الخوارزميون من هزم السلاجقة وقتل طغرل بك الثالث بالقرب من الري عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م)[٣].

أما على مستوى العلاقة مع الخطا، فقد ظل علاء الدين تكش، خاضعاً للخطا طوال عهده، لأنه كان يدين بالسلطنة لهم، بالرغم من أنه حاول «التخلص من هذه التبعية أكثر من مرة»[٤].

فنلاحظ أنه استطاع أن يستولي على مدينة بخارى عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧ م، من يد الخطا[٥] وهو أول تقدم باتجاه بلاد ما وراء

---

(١) الصرفي، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٣.

(٢) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٧، ص ٤١١.

(٤) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٥) ابن الاثير، الكامل، المصدر السابق، ج٧، ص ٤٣١.

النهر من قبل الخوارزميين، إلا أن ذلك بقي مجرد مناوشات كانت تنتهي بالاتفاق السريع.

ومع وصول ولده علاء الدين محمد بن تكش (٥٩٦-٦١٧هـ/ ١١٩٩-١٢٢٠م) عرفت الدولة الخوارزمية توسعاً، فهو تخلص من خطر الدولة الغورية عن بلاده واقتطع منها بلخ وهراة عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م[1] ، ثم تحول نحو الخطا، فعبر نهر جيحون عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧ م، وذلك بعد أن وصل إليه كتاب من سلطان سمرقند وبخارى فيه:

«إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سلطة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأمول والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل إليك ما نحمله إليهم ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة»، كما بعث سلطان سمرقند وبخارى إلى علاء الدين محمد وجوه أهل بخارى وسمرقند[2]، عندها توجه معهم فعبر نهر جيحون وحارب الخطا وأنزل بهم الهزيمة عام ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، وسيطر على بلاد ما وراء النهر[3].

هذا التوسع الكبير للدولة الخوارزمية الذي وصل إلى كرمان ومكران والسند وباميان وغزنة، توقف كله وسقط أمام جحافل

---

(١) ابن الاثير، الكامل، المصدر السابق، ج٧، ص ٤٨٧.

(٢) الصرفي، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٧.

(٣) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٣٤.

المغول بقيادة جنكيزخان عام ٦١٧هـ/ ١٢١٩م[١]، حيث اجتاحوا بلاد ماوراء النهر وأملاك الخوارزميين، لينتهي ذلك بفرار علاء الدين محمد من أمام المغول وليتوفى في العام نفسه[٢].

بعد علاء الدين، تسلم ولده جلال الدين بن محمد(٦١٧-٦٢٨هـ/ ١٢٢٠- ١٢٣٠م)، الذي أعاد الدولة الخوارزمية إلى عزها الذي كانت عليه قبل الغارات المغولية، إلا أنه عاد ففرَّ من أمام جحافل المغول من جديد، وقتل على يد بعض قبائل الأكراد[٣] لتنقرض من بعده الدولة الخوارزمية.

وفي نهاية جلال الدين يورد ابن الأثير: «وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمانٍ وعشرين لم يظهر له خبر وكذلك الي سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال، والله المستعان»[٤].

القراخطائيون في بلاد ما وراء النهر (٥٣٦-٦٠٦هـ/١١٤١-١٢٠٩م)

كان الموطن الأصلي لقبائل الخطا في شمال الصين، إلا أنهم نزحوا عنها بسبب الحروب الداخلية، ونزلوا في تركستان الغربية حيث أقاموا دولة في كاشغر وختن، عرفت باسم القراخطائيين.

---

(١) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٢) الصرفي، تاريخ دول الإسلام، المرجع السابق، ج٢، ص ٢١١.

(٣) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت، ج٦، ص ٢٧٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج٧، ص ٦٦٣.

وتوسعت مملكة الخطا لتمتد من حدود صحراء غوبي في الصين إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا. وقد تلقب ملوكها بلقب «كورخان» أي ملك الملوك[1].

توسعت مملكة الخطا باتجاه بلاد ما وراء النهر بعد أن أنزلوا الهزيمة بالسلطان السلجوقي سنجر في موقعة قطوان بالقرب من سمرقند عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، لتستقر دولتهم في بلاد ما وراء النهر مدة ٩٩ عاماً، بعد أن أخضعوا دولة الإيليك - خانية[2].

كما فرضوا على السلطان أتسز خوارزمشاه الجزية، ومع وصول علاء الدين محمد خوارزمشاه على رأس الدولة الخوارزمية، وبعد حض صاحب سمرقند على إخضاع القراخطائين البوذيين عمد هذا الأخير إلى القضاء على دولتهم عام ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م[3].

والجدير ذكره أن الخطا اتبعوا في بلاد ما وراء النهر سياسة كسبوا خلالها ود السكان المحليين المسلمين، حيث قربوا إليهم كبار رجال الدين واستعانوا بهم على الحكم، ومن هؤلاء أحمد بن عبد العزيز إمام مدينة بخارى، حيث عينه الخطا إماماً وحاكماً سياسياً على المدينة، فاستطاعوا عبره حكم البلاد[4].

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، المرجع السابق، ص ٦٥.

(٢) بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص ٤٧٦.

(٣) فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، المرجع السابق، ص ٦٧.

(٤) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٦٥.

بلاد ما وراء النهر والمغول

المغول بشكل عام، عبارة عن مجموعة من القبائل التي كانت تنتقل في بيئة صعبة بحثاً عن الماء والكلاء شمال صحراء (غوبي) في الصين، وكانوا يعملون في الصيد وتربية الماشية[١].

وكانوا يعيشون في ضيق شديد، بعيداً عن أي تحضر إنساني، إلى أن جاء جنكيز خان(٥٩٩- ٦٢٤هـ/ ١٢٠٣-١٢٢٧م) فاهتم بأمرهم وحسن من أحوالهم، ثم عمل على توحيدهم تحت إمرته[٢].

وبعد توحيد القبائل المغولية عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، واجه جنكيزخان أسرة كين الصينية وأنزل بها الهزيمة عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م[٣] ثم توسع من بعدها باتجاه مناطق القراخطائيين وسيطر على أملاكهم عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، لتظهر عندها دولة جديدة على حدود العالم الإسلامي والدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر[٤].

وقد بدأ الخلاف بين الدولتين، نتيجة التعرض لقافلة مغولية في مدينة أترار غربي نهر سيحون، من قبل ينال خان ابن خال السلطان علاء الدين محمد[٥].

---

(١) ستانلي بول، طبقات سلاطين الإسلام، القاهرة: الدار العالمية، ١٩٨٦، ص ١٨٦- ١٨٧.

(٢) السيد الباز العريني، المغول، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٦، ص ٣٩- ٤٠.

(٣) الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان، ترجمة فؤاد الصياد، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣، ص ٥٣.

(٤) فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨، ج٥، ص ٢٣٧.

ومع وصول الأخبار إلى جنكيزخان، طلب من السلطان علاء الدين محمد تسليم ينال خان لينال جزاءه، إلا أن علاء الدين رفض وقتل أحد سفراء جنكيزخان عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، لتقع الحرب بينهما(٦١٦هـ/ ١٢١٩م)[١].

وتقدم جنكيز خان باتجاه بلاد ما وراء النهر، ودخلها ولاحق الخوارزميين، فسيطر على بخارى[٢] وسمرقند[٣] واستمرت القوات المغولية بالتقدم حتى نهر جيحون، ثم قطعوه ملاحقين السلطان الخوارزمي[٤].

إلا أن جنكيزخان سرعان ما تراجع بجيشه بعد أن جعل من ولده الثاني جغتاي حاكماً على إقليم ما وراء النهر،وأضاف إليه كاشغر، وبلخ، وغزنة[٥].

فظهرت «خانية جغتاي»، التي ضمت كل مناطق الأويغور، واستمر حكم جغتاي وأبنائه وأحفاده من بعده على بلاد ما وراء النهر إلى أن ظهر تيمورلنك وسيطر على تلك البلاد.

وهكذا لاحظنا أهمية بلاد ما وراء النهر، كموقع جغرافي وسطي ربط بين بلاد الصين وخراسان والعالم الإسلامي. هذا الموقع شهد

---

(١) حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، المرجع السابق، ص ٨٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٣٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١٢، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ج١٢، ص ٣٧٠.

(٥) فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، المرجع السابق، ص ١٦٥.

العديد من المواجهات العسكرية بين مختلف القوى بغية السيطرة عليه. وبالتالي السيطرة على الطريق التجاري الذي كان يصل الصين بغرب آسيا، وأيضاً لضم تلك المناطق التي كانت غنية بالمقاتلين الأشداء الذين استُخدموا في الجيوش.

وقد ظهر معنا أيضاً أن تلك المنطقة كانت البداية التي عبرها تدفقت الجيوش المغولية لتدمر المشرق العربي وتنهي وجود الخلافة العباسية بشكل نهائي.

الفصل الثالث

الطرق الصوفية
في بلاد ما وراء النهر

يعتقد أن بدايات التصوف في الإسلام ظهرت في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، وذلك بشكل نزاع بين الزهد ومتاع الحياة الدُّنيا.

والتصوف هو، عند بعض الباحثين، العمل من قبل المذنبين على محو الخطايا عن طريق الإعراض عن متاع الحياة بغية محو الذنوب، وهو أيضاً الخوف من الآخرة ومن عذاباتها، مما دفع البعض إلى طلب التوبة والمغفرة عبر الإعراض عن متاع الحياة[1].

وقد ورد أكثر من تعريف لكلمة «التصوف» وهي تظهر تطور فكرة التصوف ما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة، وأبرزها:

١- الارتباط بين كلمة صوفي واللباس الصوفي الذي كان يرتديه أصحابه[2].

---

(١) عبد الكريم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٩٩، ص ٢١.

(٢) إحسان ظهير، التصوف المنشأ والمصدر، تركيا: إدارة ترجمان السنة، ط١، ١٩٨٦، ص ٢١.

٢- الملابس التي كان يرتديها الأنبياء من رعاة الغنم، والتي حيكت من أوبارها.

٣- الانقطاع والتأمل من قبل الأنبياء، وعيش حياة الزهد والعبادة منذ ما قبل البعث[(١)].

٤- العلاقة بين لفظة «صوفي» وأهل الصفة، وهم الفقراء من المسلمين الذين التزموا مسجد الرسول(ص)، من أجل العبادة، وكانوا يعتمدون على صدقات المسلمين[(٢)].

٥- إن كلمة «صوفي» تعود إلى «الغوث بن مُرّ» وهو رجل عرف قبل الإسلام في العصر الجاهلي، وهبته والدته ليخدم البيت الحرام، وقد عرف باسم «صوفي»[(٣)].

٦- كما يعتقد البعض أن كلمة «التصوف» مشتقة من «الصفاء» الذي يعمر قلوب الزهاد[(٤)].

٧- أن كلمة «صوفي» مشتقة من «صوفيا» اليونانية، أي «الحكمة»، حيث تمَّ الربط ما بين الزهد والحكمة التي يصدرها المتصوفة[(٥)].

---

(١) أحمد علي زهرة، الصوفية وسبيلها إلى الحقيقة، دمشق: دار نينوى، ٢٠١١، ص ١٠.
- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، القاهرة: كلمات د. ت، ج١، ص ٥٢.

(٢) صابر طعيمة، التصوف والتفلسف، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٥، ص ٢٦.

(٣) أحمد علي زهرة، الصوفية وسبيلها إلى الحقيقة، المرجع السابق، ص ١٠.

(٤) عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٥) زكي مبارك، التصوف الإسلامي، المرجع السابق، ج١، ص ٦٢.

كما عرَّف كلمة «التصوف» عدة رجال ممن عرفوا بحياة التصوف وذلك على الشكل الآتي:

١- معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ/ ٨١٥م): «التصوف الأخذ بالحقائق واليأس عما في أيدي الخلائق»[١].

٢- بشر الحافي (ت٢٢٧هـ/ ٨٤١م): «الصوفي من صفا قلبه لله»[٢].

٣- ذو النون المصري (ت٢٤٥هـ/ ٨٥٩ م): «الصوفي» إذا نطق كان كلامه عن حاله، فهو لا ينطق بشيء إلّا أنْ كان هو ذلك الشيء، وإذا أمسك عن الكلام عبّرت معاملته عن أحواله، وكانت ناطقة بقطع علائقه الدنيوية عن حاله[٣].

٥- سر السقطي (ت٢٥٧ هـ/ ٨٧٠ م): «التصوف اسم لثلاثة معان، وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقصه ظاهر الكتاب والسنّة، ولا تحمله الكراسات على هتك أستار محارم الله»[٤].

٦- سهل بن عبدالله التستري (ت٢٨٣هـ/ ٨٩٦م): «التصوف قلة الطعام والسكون إلى الله والفرار من الناس»[٥].

---

(١) صابر طعيمة، التصوف والتفلسف، المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٣) عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٥) المرجع نفسه.

«هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه بالجوع والصبر والجهد، لفساد ما عليه أهل الزمان»[١].

٧- الجنيد البغدادي (ت٢٩٧هـ/ ٩٠٩م): «التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس، ومنازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم الحقيقة، وعمل ما هو خير إلى الأبد، والنصح الخالص لجميع الأمة، والإخلاص في مراعاة الحقيقة، واتباع النبي ﷺ والشريعة»[٢].

أما بروكلمان، فيعيد ظهور التصوف إلى التوتر الذي ظهر بين الفرق الدينية، بين الشيعة والسنة من جهة، والحنابلة والخلاف داخل السنة أنفسهم، ما دفع «بأصحاب النفوس الأكثر صفاءً وعمقاً إلى الفرار بأنفسهم من صخب المنازعات حول المسائل السياسية الدينية والقضايا المذهبية إلى طمأنينة المشاهدة»[٣].

ويعيد بروكلمان التصوف إلى العهد الأموي في العراق: «حيث عمل في هذا الاتجاه كل من الحسن البصري (ت١١٠هـ/ ٧٢٨م) في البصرة، وجابر بن حيان الكيميائي الشيعي (ت٢٠٠هـ/ ٨١٥ م)، وأبو العتاهية (ت٢١٠هـ/ ٨٢٥م) في الكوفة. حتى إذا أصبحت

---

(١) محمد بن الحسين النيسابوري، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨، ص ١٦٩.

(٢) صابر طعيمة، التصوف والتفلسف، المرجع السابق، ص ١٨.

(٣) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

بغداد عاصمة الأمبراطورية جمع المنصرفون إلى حياة التأمل شملهم حلقات حلقات، فهم يلقون الدروس العامة في مساجدها وفي الأوساط المختلفة الخاصة بهم، وهم يحاولون أن يحركوا [في نفوسهم] الشعور الصوفي ويعتقلوه بواسطة السماع (الموسيقى)».

ويعتبر بروكلمان، أن الصوفيين المسلمين استعاروا «من رهبان النصارى أرديتهم الصوفية البيضاء، التي عرفوا بسببها بالصوفية»[1].

وأول من سعى إلى تطهير النفس لتتعرف إلى الله تعالى وتتوصل إلى المحبة والاتحاد به وجعل منها «عقيدة المعرفة» أبو سليمان الداراني (ت٢٣٥هـ/ ٨٤٩م)، أما أول صوفي أخذ بمذهب «السلوك» دون التزهد هو «معروف الكرخي» (٢٠٠هـ/ ٨١٥ م)[2].

ويعتبر ذو النون المصري (ت٢٧٧هـ/ ٨٩٠م) مؤسس العقيدة الصوفية ومن أقطابها الأوائل، فهو «الذي جعل للصوفية شكلها الدائم، حيث أدخل فكرة أن معرفة الله لا يتم الوصول إليها إلا عبر الوجد»[3].

ينقل فيليب حتي أن التصوف في الإسلام كان بداية مقصوراً على حياة الزهد التي تقوم على الاعتزال والتأمل، وهي أشبه ما تكون بحياة النساك عند النصارى.

وبعد ذلك أصبح مع القرن الثاني للهجرة وما بعده، حركة

---

(١) بروكلمن، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٧٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٠٧.

جمعت معتقدات من مصادر نصرانية وأفلاطونية وغنوسية وبوذية. ويعتبر حتي «أن هنالك العديد من أوجه الشبه بين التصوف عند المسلمين وحياة النساك النصارى» وأبرزها:

١- لبس الصوف مأخوذ عن رهبان النصارى ومنهم أخذت فكرة العزوبة أو التبتل وهي ليست من الإسلام.

٢- تأثرت الصوفية من خلال التأملات الفردية والتنبه الطويل والخلوات بالصوامع السريانية.

٣- نظام الشيخ والمريد في طريقة المتصوفة أشبه ما يكون بنظام الكاهن والمبتدئ عند الرهبان النصارى.

٤- حتى حلقات الذكر عند الصوفية يعيدها فيليب حتي إلى الأصل المسيحي[1].

وقد ظل التصوف مع القرون الخمسة الأولى مجرد اختيار شخصي، وظهرت بعض الحلقات من المريدين التي وجدت والتفت حول شخصية صوفية.

هذه الحلقات أخذت تظهر بشكل هيئات منظمة مع نهاية القرن ١٢م، وكان أبرزها:

١- الطريقة القادرية، نسبة إلى عبد القادر الجيلاني الفارسي (٤٧٠-٥٦٢هـ/ ١٠٧٧-١١٦٦م).

٢- تلتها الرفاعية وهي تعود إلى أحمد الرفاعي (ت ٥٧٩هـ/ ١١٨٣ م).

(١) فيليب حتي، المرجع السابق، ص٥٠٥- ٥٠٦.

٣- ثم الطريقة المولوية، وهي تنسب إلى الشاعر جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)[١].

الطرق الصوفية في بلاد ما وراء النهر

مع دخول الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر، بدأ التيار الصوفي بالظهور والانتشار بشكل واسع، وذلك للخصائص السمحة التي تحملها الطرق الصوفية.

ومع إيمان أخلاق التصوف بالروح ودورها، ودعوتها إلى الرضى والسكينة والأمان، ومع تزاحم الناس أمام أبواب المتصوفة، سارع الأمراء والحكام في بلاد ما وراء النهر إلى تبني هذه الطرق، وتقريب رجال المتصوفة وتتلمذوا على أيديهم. هذا ما رفع من شأن رجال الصوفية فبلغوا المراكز العالية داخل الدولة[٢].

هكذا ظهرت المساجد والتكايا والمدارس، التي أسسها الحكام للمتصوفة، بغية كسب الناس ودعمهم وللبقاء في السلطة.

وتوسع شأن التصوف، حيث نلاحظ في القرن الثالث الهجري وجوداً للمتصوفة في هراة ونيسابور ومرو، ومع القرن الرابع الهجري ظهر شيوخ المتصوفة في بخارى وفرغانة، ووصل إلى خراسان حيث

---

(١) فيليب حتي، المرجع السابق، ص ٥٠٩.

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، المرجع السابق، ص ٩٧.

انتشر بين الأتراك وأخذ شأنه يزداد ويقوى داخل المراكز الإسلامية في كل من بخارى وسمرقند[١].

ومما ساهم في انتشار التصوف بشكل واسع في بلاد ما وراء النهر، كون «تركستان كانت قبل الإسلام مركز تلاقي الديانات والثقافات الشرقية والغربية، فلما دخل أهلها في الإسلام صبغوه بصبغتهم الصوفية القديمة»[٢].

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن ظروف نشأة التصوف في بلاد ما وراء النهر تعود إلى:

١- أخلاقيات الصوفية وطريقة تعاملهم مع سكان البلاد.

٢- تبني الحكام لرجال الصوفية.

٣- ظهور طرق باطنية مالت إلى الهرطقة والترّهات حاربتها الصوفية.

٤- الدعوة إلى الأمان والسكينة، وهو ما كان يسعى إليه الناس.

٥- روح الجهاد التي تبنتها الصوفية، وبالتالي تحولت الصوفية إلى حام لسكان البلاد من أي اعتداء خارجي[٣].

أما أبرز دعاة الصوفية في بلاد ما وراء النهر في تلك البلاد

---

(١) فؤاد كوبريلي، المتصوفة الأولون في الأدب التركي، ترجمة عبدالله أحمد إبراهيم، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٢، ص ٦٣.

(٢) إحسان الهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، ط١، ١٩٨٦، باكستان: دائرة ترجمان السنة، ص ٩٨.

(٣) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ٩٨.

حينئذ، فكان الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤-٣٠٩هـ/ ٨٥٨-٩٢٢م)، وهو من البيضاء، وهي من كورة إصطخر في فارس[١].

وقد تتلمذ على الجنيد البغدادي، بعدها أخذ يجوب في البلاد ناشراً أفكاره، ومع إعدامه في بغداد في ٢٦ آذار عام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م، قصد أتباعه خراسان وبلاد ما وراء النهر، ومهدوا الأرض لنشوء الشعر الصوفي عند الفرس والأتراك[٢]. ومع حكم السلاجقة لبلاد ما وراء النهر، ظهرت طرق الدراويش وازدهرت في تلك البلاد التي عرفت حينئذ غنىً بالأثر الصوفي[٣].

كما ارتبط التصوف في إيران وبلاد ما وراء النهر والهند، بشخصيتين من المتصوفة كان لهما أبرز الأثر في ازدهار التصوف في تلك النواحي، وهما:

١- أبو يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م) وهو من بسطام في خراسان، «واشتهر أبو يزيد بالشّطح، وأصله كلمات مستغربة تصدر عن الصوفي في حال وجده وذهوله بمشاهدة جلال الحق، فلا يدري ما يقول، أو أنه ينطق عما يشهد بلسان مشهوده»[٤].

---

(١) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٥، ٢٠٠٦، ص ٢٠٠.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص٢٣٨ - ٢٣٩.

(٣) فيليب حتي، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٥٥.

(٤) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ٨٠.

٢- الجنيد البغدادي، الصوفي العراقي (ت٢٩٧هـ/ ٩٠٩م)[١]، وهو من نهاوند، وهي مدينة بالقرب من همذان[٢]، وأساس مذهبه هو مراقبة الباطن، وتصفية القلب، وتزكية النفس، والتخلق بالأخلاق الحميدة[٣].

وهكذا انتمى مؤسسو المدارس الصوفية في بلاد ما وراء النهر، إلى مدرستي الجنيدية والبسطامية[٤].

ترافق ذلك مع ظهور عدد من الدراويش الجوالين غير المرتبطين بأي شيخ أو مدرسة صوفية معروفة[٥]. وقد عمد هؤلاء الدراويش إلى الاشتغال بالتسبيح والترتيل وقراءة الشعر، وكانوا يظهرون العطف والشفقة على الناس، وينادون بعمل الخير والإصلاح والكرم[٦].

ومن بلاد ما وراء النهر، كان المتصوفة من الدراويش ينتقلون إلى الهند نحو الجنوب، أو إلى الأناضول غرباً، ناشرين أفكارهم وطرقهم[٧].

---

(١) سبنسر ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد القادر البحراني، بيروت: دار النهضة العربية، ط١، ١٩٩٧، ص ٩٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج٥، ص ٣١٣.

(٣) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٤) سبنسر ترمنجهام، الفرق الصوفية، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) محمد فؤاد كوبريلي، المتصوفة الأولون في الأدب التركي، ترجمة عبدالله أحمد إبراهيم، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢، ص ٦٥.

(٧) ترمنجهام، الفرق الصوفية، المرجع السابق، ص ١١٣.

وقد أطلق على هؤلاء لقب: «البابات»، وتعني الدراويش الأتراك الجوالين[1] وتعني أيضاً الواعظ الشعبي أو الشيخ[2].

وقد لعب هؤلاء دوراً كبيراً من خلال العلاقة مع حياة الناس العاديين في كل المناطق التي وجدوا فيها في بلاد ما وراء النهر وفارس، وخصوصاً أن هؤلاء الدراويش كانوا من الأتراك والفرس تحديداً[3] ومع انهيار دولة السلاجقة في بلاد الشام، قوي نشاط الدراويش وازداد، خصوصاً مع حاجة الناس إلى الشعور بالطمأنينة مع الفوضى السياسية التي مرّت بها بلادهم حينذاك[4].

وبلغ نفوذ المتصوفة شأناً وتأثيراً كبيرين، حتى أن الأمراء القراخطائيين وأتباعهم، ابتعدوا عن شرب الخمور[5].

وأصبح التصوف مهنة مع الوقت، وزادت شعبية أماكن وجود الطرق الصوفية، حيث الخانقاوات، والرباطات، والتكايا، التي انتشرت بسرعة وخصوصاً في العصر السلجوقي[6] حيث عمد السلاجقة إلى التقرّب من علمائهم وشيوخهم، وعاملوهم بالتوقير والتبجيل[7].

---

(١) ترمنجهام السابق، ١٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٥) محمد فؤاد كوبريلي، المتصوفة الأولون، المرجع السابق،ص ٦٣- ٦٤.

(٦) ترمنجهام، الفرق الصوفية، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٧) محمد فؤاد كوبريلي، المرجع السابق، ص ٦٣- ٦٤.

هكذا تطورت حركة التصوف داخل المجتمعات التركية والفارسية، حيث ظهرت مراكز أصبحت مقار للطرق الصوفية، أو مدارس لها، فظهر المركز أو الحلقة التي تركزت على مرشد أو موجه واحد، لتتحول إلى مدرسة تخلد ذكره ونوع تعليمه وممارساته الصوفية وأسلوب حياته[1].

وفي هذه المرحلة بالذات، أي في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، ظهرت شخصيتان بارزتان في التاريخ الصوفي في آسيا الوسطى، كان لهما الدور والتأثير البارزان في حركة التصوف والمنحى الذي تبنته في طرقها وهما:

١- أبو الحسن الخرقاني (ت٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م). الذي اعتبر نفسه الوريث الروحي للبسطامي.

٢- أبو علي القرمذي (ت٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) ويضاف إلى ذلك شخصيتان صوفيتان من تلاميذ القرمذي، اشتقت عنهما الخطوط الرئيسة للتصوف في وسط آسيا وهما:

١- أحمد الغزالي(ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) وهو الأخ الأصغر لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) الملقب بمجدد القرن الخامس الهجري.

٢- يوسف الهمذاني (ت٥٣٥هـ/ ١١٤٠م)[2].

---

(١) ترمنجهام، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٧.

١- العلامة الصوفي يوسف الهمذاني

(٤٤٠-٥٣٥هـ/ ١٠٤٨-١١٤٠م)

وهو شخصية صوفية كان له دور كبير في وسط آسيا، والمؤسس الروحي لطريقة «خو جاغاد»، كما أنه يُعد مؤسس المدرسة الصوفية في آسيا الوسطى، وهو من همذان من قرية بوزانجار.

انتقل إلى بغداد، وتلقى علومه في الفقه عند الفقيه أبي إسحق الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٥هـ/ ١٠٨٣م). بعدها انتقل إلى اصفهان وبخارى، حيث أكمل علومه في مبادئ الفقه والدين، لمع اسمه في العراق وخراسان وما وراء النهر وخوارزم، ونال لقب صوفي من عدة مشايخ كبار، كالجويني والسمناني والفرمادي[١].

درس الفلسفة العقلية ودرّس فيها، ثم تحول عنها إلى الرياضة الروحية، والتفرغ للتعبد لله عز وجل، وإلى دعوة الناس إلى الطريق المستقيم[٢].

تنقل بين بخارى وسمرقند ومرو وهراة، وتفرغ لتعليم المبادئ الصوفية[٣].

---

(١) بوريبوي أحمدوف، العرب والإسلام في أوزبكستان، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ١٩٩٩، ص ١٦٨.

(٢) Hasan Lutfi Shushud, Masters of wisdom central Asia, Inner Tradition,
Rochester, Vermont, Toronto, Canada, p. 15-16.

ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٣) بوريبوي أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٦٨.

تعلم على الهمذاني العديد من التلاميذ، كما نسب عدد لا بأس به من رجال الصوفية المعروفون أنفسهم إليه، وأبرزهم خواجا عبدالله باركي، وخواجا حسان أنداكي، وخواجا أحمد يسوي، وخواجا عبد الخالق غيجد وفاني[1].

ويمكن أن نعتبر أن اثنين فقط من هؤلاء التلاميذ أنشآ طريقين للصوفية، وهما: «عبد الخالق غيجد وفاني» وهو خط فارسي، «وأحمد يسوي» وهو خط تركي[2].

أورد ياقوت الحموي نسب الشيخ يوسف الهمذاني قائلاً: «أبو يعقوب يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسن بن وهرة الهمذاني البوزنجردي، كان إماماً ورعاً متنسكاً عاملاً بعلمه، له أحوال وكرامات وكلام على الخواطر، وإليه انتهت تربية المريدين، تفقه على أبي إسحق الشيرازي وسمع منه الحديث ومن غيره من العراقيين»[3].

تحول نحو الطريقة الصوفية، وذلك على يد الشيخ «أبي علي فرمدي»[4].

كان على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وعمل على الإرشاد والهداية في بلاد ما وراء النهر[5].

---

(١) ترمنجهام، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٨.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٧.

(٤) كوبرلي، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٥) المرجع نفسه.

كانت تكيته في مرو مشهورة، واعتبرت كعبة خراسان في تلك الفترة كما قصد بغداد للوعظ والنصح في العصر السلجوقي، حيث كان يقصده الصفوة المختارة(١).

وفي ذلك ينقل ابن الأثير: عن العام ٥٠٦هـ/ ١١١٢م، «وفيها ورد إلى بغداد يوسف بن أيوب الهمذاني الواعظ، وكان من الزهاد العابدين، فوعظ الناس بها، فقام إليه رجل متفقه يقال له ابن السقاء، فآذاه في مسألة وعاوده، فقال له الهمذاني: اجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلّك تموت على غير دين الإسلام، فاتفق بعد مُدَيدة أن ابن السّقاء خرج إلى بلاد الرومِ وتنصّر»(٢).

أما ابن خلكان فيعرف الهمذاني بقوله: «الفقيه العالم الزاهد الجليل والرباني، صاحب المقامات والكرامات، قدِمَ بغداد في صباه بعد الستين وأربعماية، ولازم الشيخ أبا إسحق الشيرازي وتفقه عليه، حتى برع في أصول الفقه والمذهب والخلاف... وسمع بأصبهان وسمرقند، وكتب أكثر ما سمعه، ثم زهد في ذلك ورفضه، واشتغل بالزهد والعبادة والرياضة والمجاهدة حتى صار علماً من أعلام الدين تهتدي به الخلق إلى الله تعالى...»(٣).

---

(١) Hasan Lutfi Shushud, Masters of wisdom central Asia, Inner Tradition, Rochester, Vermont, Toronto, Canada, p. 22.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٦، ص ٥١١.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الصياد، ط ١، ١٩٩٤، ج ٧، ص ٧٨.

ويضيف: «... إليه انتهت تربية المريدين الصادقين، واجتمع برباطه بمدينة مرو، جماعة من المنقطعين إلى الله تعالى ما لا يتصور أن يكون في غيره من الربط مثلهم»[1].

وعند فؤاد كوبريلي ورد في تعريفه للهمذاني قوله: «كان يحبس نفسه في صومعة عبادته[2] ويعتقد أنه كان يحتفظ بعمامة سلمان الفارسي وعكازه. وكان يدعو شيوخ سمرقند لعقد مجلس لدراسة علوم الشريعة، كما كان يداوي الجرحى ومرضى الحمى، ووصف الأدوية للمرضى، وتعليم القرويين دينهم، ويقصد ديار النصارى وعبدة النار للدعوة إلى الإسلام»[3].

وكان سلاطين السلاجقة يجلّونه، وينقل أن السلطان سنجر أرسل خمسين ألف قطعة من الذهب من أجل دراويش تكيته مع رسالة يطلب فيها من أصحاب الشيخ عدم الانفصال عنه، والتضرّع إلى الشيخ كي يقرأ له الفاتحة.

كان هذا الموقف من السلطان سنجر متّبعاً في تلك الفترة، حيث كان السلاطين والأمراء كما أوردنا يتقربون من المتصوفة لكسب ود العامة ولتأييد قراراتهم التي يتخذونها، ولدعمهم في حروبهم[4].

---

(١) ابن خلكان، المرجع السابق، ص ٧٩.

(٢) كوبرلي، المرجع السابق، ص١٣٢.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٣٣.

٢- الشيخ أحمد يسوي (ت ٥٦٤هـ/١١٦٦م)

كان الخواجا أحمد يسوي من تلامذة العلامة يوسف الهمذاني ومن المقربين إليه، أصبح من أوائل شيوخ الصوفية في بلاد ما وراء النهر، ومؤسساً لطريقة صوفية، عرفت «باليساوية»[١].

ولد الشيخ أحمد يسوي في مقاطعة «صيرام»[*] إلى الشمال الشرقي من مدينة «آق صو» الواقعة في إقليم تركستان إلى الشرق من الصين[٢]، في أواسط القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد.

كان والده الشيخ إبراهيم من رجال الدين المشهورين في إقليم «صيرام» قد تزوج من «عائشة خاتون» ابنة أحد تلاميذه الشيخ موسى، فأنجب منها «جوهر شاهناز» و«أحمد يسوي»، وسرعان ما توفيت والدتهما «عائشة خاتون» ولحق بها والدهما «الشيخ إبراهيم»، فتربى أحمد يسوي عند شقيقته «جوهر شاهناز»[٣].

بعد ذلك، ينتقل الشيخ أحمد يسوي إلى مدينة «يسي»[**] التي ينتسب إليها باللقب[٤] وفي هذه المدينة تلقى بعض العلوم على

---

(١) بوريبوي أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(*) صيرام: مقاطعة تطل على إقليم «قره صو»، يمر فيها نهر «شيهار» وهو فرع لنهر ياريم، كوبريلي، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٢) كوبريلي، المرجع السابق، ص ١٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(**) يسي: هي مدينة مشهورة في دار الملك بالتركستان، كانت عاصمة سلطنة الأوزبك، وهي مدينة القازاق، كانت فيما سبق تقع شمال سمرقند وتسما «نسا».

(٤) كوبريلي، المرجع السابق، ص ١٢٤.

الشيخ «أرسلان بابا»، وهو أحد المشايخ المعروفين ممن كان الأتراك يقصدونهم لالتماس البركة والدعاء[1]، ويعتقد أن أرسلان بابا هداه إلى التصوف[2].

بعدها ينتقل الشيخ أحمد يسوي إلى بخارى، التي كانت تخضع حينئذ للقراخطائيين في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، وكانت بخارى حينئذ مقصداً للعديد من طلاب العلم ومن مختلف مناطق تركستان[3].

وكان أبرز علماء بخارى من المتصوفة، في تلك الفترة، هو الشيخ «يوسف همذاني» وقد انضم أحمد يسوي إلى حلقته[4].

«وقد تلقى الشيخ يسوي منه آداب الطريقة والسلوك وتعلم منه كذلك العلوم الظاهرة والباطنة وطوف معه مختلف الأقاليم والبلدان التي كان يسافر إليها»[5].

فكان يوسف الهمذاني القدوة الحسنة للشيخ أحمد يسوي في العلم والزهد والفضيلة والتقى، وأصبح له آصرة وثيقة العرى بأحكام الشريعة[6].

---

(١) Hasan Lutfi Shushud, *Masters of wisdom central Asia,* Inner Tradition, Rochester, Vermont, Toronto, Canada, p. 19, 23-24.

(٢) محمد فؤاد كوبريلي، المتصوفة الأولون، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص١٢٦.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

ومع وفاة الشيخ يوسف الهمذاني كان أحمد يسوي الخليفة الثالث له[1].

إلا أن الشيخ أحمد يسوي، سرعان ما عاد إلى مدينة «يسي» حوالى العام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠-١١٦١م، ليتوفى بعدها في هذه المدينة عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦-١١٦٧م[2].

يقول سبنسر ترمنجهام عن العلامة أحمد يسوي: «ورغم أننا نعرف القليل عن حياته، فإن أهمية أحمد في تكوين التراث الإسلامي التركي ليس محل خلاف، فهي أول طريقة صوفية يؤسسها تركي، والتراث الياساوي له الكثير من الفروع الدينية والاجتماعية والثقافية، وقد لعب دوراً في نشر الإسلام بين القبائل التركية، وفي تأقلم الإسلام بالأوساط البدوية التركية، وفي التوفيق اللغوي خلال قصائد أحمد»[3].

وكما معلمه يوسف الهمذاني، فإن أحمد يسوي ذاع صيته، كشيخ صوفي «جليل وشاعر وواعظ موهوب عبقري»[4].

عاش حياة متواضعة وبسيطة، واشتهر بالدعوة عبر أشعاره إلى الصدق والعدل والصبر والنزاهة والأمانة[5].

وفي مدينة يسي قصده الألوف من التلامذة والمريدين، من

---

(١) بوريبوي أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٢) كوبرلي، المرجع السابق. ص ١٢٦.

(٣) ترمنغهام، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٤) أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٦٩.

مختلف أنحاء تركستان، وكانت الظروف السياسية مؤاتية في تلك الفترة، حيث دولة «خوارزمشاه» الإسلامية، التي كان شيوخ الصوفية أصحاب نفوذ قوي فيها. لتظهر التكايا والزوايا بشكل واسع.

وفي هذه الظروف نفسها اتسعت شهرة أحمد يسوي، وظهر حوله عدد كبير من علماء بخارى وسمرقند ومدن خراسان[١].

وعند بلوغه سن الثالثة والستين، عمد الشيخ أحمد يسوي إلى بناء صومعة للتعبد في تكتيه، وانزوى فيها، وهي من تقاليد الصوفية[٢] وكان للشيخ أحمد يسوي ولدان هما «جوهر خوشناس» و«جوهر شاهناز»[٣].

وأثناء وجوده في «يسي» وضع الشيخ أحمد يسوي ديوانه المشهور «ديوان الحكمة»، ظهرت من خلاله منظوماته الصوفية على شكل حِكَمْ. واعتبر كتاباً مقدساً عند أتراك الشرق والشمال وأوزبك والقرقيز وأتراك الفولجا[٤]. وقد كتبه أقرب ما يكون إلى الأدب الشعبي، وهو ما ساهم في انتشاره بشكل واسع[٥].

«وتعد أشعار المفكر العظيم نموذجاً للغة الأوزبكية القديمة والشعر التركي في الفترة ما بين القرنين ١٠-١٢م»[٦].

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

(٦) بوريبوي أحمدوف، المرجع نفسه، ص ١٦٩.

يقول الكاتب التركي فؤاد كوبريلي: «لقد كان أحمد يسوي شاعراً صوفياً غريباً تماماً عن المحسنات البديعية، كما أن خياله الشعري ليس خصباً مثل غيره من المتصوفة، لا يكترث ولا يبالي بالعالم الخارجي ومظاهره وهو في لجة عالم الوحدة، قانع قابع، وهو يستطيع تشبيه الدنيا بأن لها نهاية واحدة مثل حبة الخشخاش»[1].

«لزام عليك أيها العاشق أن تغلل نفسك بغل المحبة حتى تكون عاشقاً، ولكن يتوجب عليك قبل كل هذا أن تقتل النفس، ومن ثم يجب عليك أن تتحمل بالصبر والتحمل في سبيل تجشم هذه المصائب والنكبات وما يعتور سبيلك من مشاق طويلة وعذابات»[2].

آداب اليسوية

كما كل طائفة من الطرق الصوفية، فإن لليسوية آداباً خاصة يجب التمسك بها وهي:

١- الإذعان والتسليم المطلق للشيخ، ولا يعرف المريد فضلاً لأحد عليه سوى شيخه، إنه في حاضرة المرشد في كل صنوف الطعام والشراب، ويقضي لياليه في السبات العميق...

ولكنه عندما ينفصل عن شيخه فإنه ينهض قائماً بالليل صائماً بالنهار رغبة في إرضاء شيخه مقتاتاً بالبكاء والتجرد ليسد طريق الترقي للدرويش.

---

(١) كوبرلي، المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ٢٤٧.

٢- يجب أن يكون المريد فطناً ذكياً ألمعياً، وعليه أن يفهم ويعي رموز شيخه وإشاراته.

٣- يتوجب على المريد كذلك أن يكون راضياً عن كل أقوال وأفعال شيخه مطيعاً لها.

٤- يلزم المريد أن يكون خفيف الحركة نشيطاً، ولا يستثقل خدمة شيخه ليحظى برضاه، لأن رضا الله من رضا شيخه.

٥- أن يكون المريد مستعداً دائماً كي يوزع كل ما تملك يداه من مال ومتاع على شيخه.

٦- يجب أن يكون على أهبة الاستعداد دائماً لكي يُضحي بروحه في سبيل شيخه حتى يحظى بوصال الله، ولزاماً عليه أن يعيش صديقاً لصديق شيخه، عدواً لعدوه، مستعداً لبيع نفسه كالعبد الرقيق من أجل تلبية حاجات شيخه... الخ[١].

أما بالنسبة إلى أحكام الطريقة فهي ستة:

أ - معرفة الحق.

ب - السخاء المطلق.

ج - الصدق المحقق.

د - اليقين المستغرق.

هـ - توكل الرزق المطلق.

و - إمعان وتفكر مدقق.

أما أركان المشيخة والقدوة فهي ستة:

---

(١) كوبرلي، المرجع السابق، ص ١٧٢-١٧٣.

أ - علم ديني يقيني.

ب - حلم مبين متين.

ج - صبر جميل.

د - الرضى الجليل.

هـ - إخلاص خليل.

و - قرب جزيل[1].

وسنن الطريقة هي ستة أيضاً:

أ - صلاة في الجماعة.

ب - استيقاظ في الأسحار.

ج - دوام الوضوء.

د - حضور الله.

هـ - ذكر الله.

و - طاعة للصالحين والمعتقدين.

ومستحبات الطريقة هي ستة:

أ - إكرام وفادة الضيف بكل بشر وسرور.

ب - قبول الضيف مهما كان حاله.

ج - العلم بأن المبالغة في إكرام الضيف مغنم عظيم.

د - إقامة موائد الضيافة.

هـ - بذل الجهد للقيام بعمل ما يريده الضيف.

و - الدعاء لأحمد يسوي.

---

(١) كوبريلي، المرجع السابق، ص ١٧٣.

وآداب الطريقة ستة: أن يتواضع ويجثو على ركبتيه.

أ - الجلوس في أدب جم.

ب - إظهار الذل والخضوع لكل شخص.

ج - إظهار فضائل الناس عليه.

د - أن يكون على علم ودراية بقدر العلماء والمشايخ وأن يقف في حضرتهم في سكينة وهدوء.

هـ - ألّا يتفوّه بكلمة في مجلس الشيوخ من دون استئذان.

و - أن يخفي في ذاكرته رموز وكرامات وسر ولاية شيخه وسائر المشايخ الآخرين(١).

الطرق الصوفية المتأثرة بالشيخ أحمد يسوي

أبرز هذه الطرق هي:

أ - النقشبندية.

ب - البكتاشية(٢).

أ- النقشبندية

يعتبر الشيخ يوسف الهمذاني، مؤسس الطرق الصوفية في وسط آسيا، ومن بعده كلٌ من الشيخ أحمد يسوي، والشيخ عبد الخالق الغيجدوفاني(٣).

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي، المرجع السابق، ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٦.

(٣) بوريبوي أحمدوف، العرب والإسلام في أوزبكستان، المرجع السابق، ص ١٦٨.

ومن بعد هذا الأخير، الشيخ محمد بهاء الدين الأويس البخاري، المعروف بشاه نقشبند، وقد أطلق على طريقته اسم «النقشبندية»، ويعرفها محمد درنيقة على الشكل الآتي: «وهي تتألف من جزئين: نقش وهو صورة الطابع إذا طبع به على شمع أو نحوه، وبند ومعناه ربط وبقاء من غير محو، وهي تشير إلى تأثر الذكر في القلب وانطباعه فيه»[١].

ويعيد الشيخ فريد الدين آيدن معنى نقشبند، بقوله: «كان يطلق اسم «نقشبند» على الرسام والنقاش الذي يعمل الوشايا والنمنمة على الأقمشة في اللهجة التركية القديمة، أما سبب تسميتهم بالنقشبندية لأنهم يزعمون أنهم يسعون إلى نقش محبة الله تعالى في قلوبهم بالذكر المتواصل السلوك المأثور من ساداتهم»[٢].

ويعتقد أن النقشبندية هي «اليسوية»، ولكنها ظهرت بزي جديد وهي امتداد لها[٣].

فالنقشبندية واليسوية تتحدان في الطقوس والعقائد والمراسم الصوفية، حتى أن بهاء الدين نقشبند يقول إنه تلقى الفيض وتعاليم التصوف على يد الشيخ خليل آتا، أحد شيوخ الطريقة اليسوية[٤].

---

(١) محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، بيروت: جروس برس، د.ت.، ص ١١.

(٢) الشيخ فريد الدين آيدن، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، تركيا: العبر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، ص ٥.

(٣) بديعة أحمد عبد العال، النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الأتراك، القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ط ١، ٢٠٠٩، ص ١٣-١٤..

(٤) بديعة أحمد عبد العال، المرجع السابق، ص ١٥ + كوبرلي، المرجع السابق، ص ١٨٧.

فالنقشبندية راجت من بعد أحمد اليسوي، في بلاد ما وراء النهر، ومن ثم وصلت إلى خراسان وخوارزم واتسعت رقعة نفوذ مشايخها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، دعمتها السلطة الحاكمة وأصبح الأمراء من مريديها، لتصل النقشبندية إلى ذروة مجدها في القرن السادس عشر للميلاد[١].

ولد عبد الخالق الغجدواني(ت٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، مؤسس النقشبندية، بقرية غجدوان قرب بخارى، وقد تعرف إلى طريقة جديدة في الذكر، وهي أنه كان يغطس في الماء ويذكر بقلبه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فكان أول من اشتغل بالذكر الخفيّ على هذه الطريقة، وأدخلها في التصوف[٢].

لازم الغجدواني الشيخ يوسف الهمذاني في بخارى، بعدها توجه الغجدواني نحو الشام حيث بنى زاوية، وكان له العديد من التلاميذ المنتشرين في أنحاء العالم الإسلامي، وخصوصاً في وسط وغرب آسيا[٣].

وكان للغجدواني عدة وصايا، منها:

«يا بني أوصيك بتحصيل العلم والأدب، وتقوى الله، واتبع آثار السلف الصالح، ولازم السنّة والجماعة، واقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب الصوفية الجاهلين، ولازم صلاة الجماعة، وإياك

---

(١) بديعة محمد عبد العال، المرجع نفسه، ص ١٥-١٧.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧.

والشهرة فإنها آفة، وكن واحداً من الناس ولا تمل لمنصب ولو كان محموداً»[1].

أما محمد بهاء الدين النقشبندي (٧١٧-٧٩١هـ/١٣١٨-١٣٨٨م).

فهو شيخ هذه الطريقة التي أخذت اسمها منه، ولد في قصر العارفان، إحدى قرى بخارى، تعلم على يد الشيخ محمد بابا السماسي، وبعد وفاة هذا الأخير، رافق الشيخ الأمير «كلال»، وأثناء ذلك بدأ بالذكر الخفي[2]. تنقل بين مرو وبخارى، ليعود بعدها إلى بلدته قصر العارفان، وذاع صيته، فقصده الناس من المناطق كافة. وكان دائم البقاء في خلوته في آخر حياته، إلى أن مات ودفن في بستان منزله[3].

للنقشبندي عدة رسائل:

تنبيه الغافلين.

سلك الأنوار.

هدية السالكين وتحفة الطالبين[4].

يعتبر النقشبندية أن طريقتهم هي طريقة الصحابة من دون زيادة

---

(١) بديعة أحمد عبد العال، المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، المرجع السابق، ص ١٨.
ترمنجهام، المرجع السابق، ص ١١١.

(٣) محمد درنيقة، المرجع نفسه، ص ١٩.

(٤) Hasan Shushud, *Masters of wisdom central Asia*, 2007, p. 29-30.
- درنيقة، المرجع السابق، ص ٢٠.

أو نقصان، «فهي تدعو إلى العبودية التامة ظاهراً وباطناً مع الالتزام التام بآداب السنة النبوية، وهي تحض على العزائم وتجنب الرخص في الحركات والسكنات، وفي العادات والعبادات والمعاملات، كما أنها متحررة من الابتداع والانحرافات والشطحيات والرقص وسفاسف السماع، وليس فيها كثرة الجوع وكثرة السهر، وبالتالي فإنها سليمة من كدورات جهلة المتصوفة، لأنها ملتزمة بآداب الشريعة التي تحث على الاعتدال وفضيلة الوسط»[١].

من سمات النقشبندية رفض كل أنواع التعصب والتطرف، ولهذا كان انتشارها عنصراً مكملاً للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، فحققت نفوذاً في مناطق الدغستان وشرق الشيشان وشمال أذربيجان، وامتدت إلى المناطق الشرقية والجنوبية من تركمانيا في آسيا الوسطى، ووادي فرغانة، خاصة منطقة القيرغيز، وفي خوارزم، وفي منطقة القاراقالباق[٢].

ومن أبرز ما تدعو إليه النقشبندية:

يقول الشيخ محمد عبدالله الخاني الخالدي النقشبندي (ت١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢ م)، وهو أحد مشايخ هذه الطريقة، في تعريف النقشبندية:

---

(١) المشخانوي النقشبندي، جامع الأصول، المطبعة الوهبية، ١٨٨١، ص ١٤٩.

Itzhak Weizmann, *The Naqshbandiyya,* Routloudge, London and New York, 2007, p. 29-30.

(٢) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، المرجع السابق، ص ١٠٢.

١- «إن معتقد سادتنا النقشبندية... هو معتقد أهلُ السنّة والجماعة ومبنى طريقتهم على حفظ أحكام الشريعة المطهرة»[1].

٢- «قد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان له شيخاً يرشده إلى زوال تلك الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله تعالى بقلبه لتصح صلاته من باب لا يتم الواجب إلّا به».

٣- »... إن كل من لم يتخذ له شيخاً يرشده إلى الخروج عن هذه الصفات فهو عاص لله تعالى ورسوله لأنه لا يهتدي لطريق العلاج بغير شيخ ولو حفظ ألف كتاب في العلم».

٤- «إياك أن تقول طريق الصوفية لم يأتِ بها كتاب ولا سنة فإنه كفر».

٥- «لا يكمل طالب العلم إلا بالاجتماع على أحد من أشياخ الطريق ليخرجه من رعونات النفوس ومن خطرات تلبيس النفس»[2].

٦- «فمن اتخذ له شيخاً يسلكه في طريق الله تعالى يلزمه أن يرى شيخه باباً من أبواب الله تعالى».

٧- «إن الظاهر للتلميذ من وراء صورة الشيخ ونفسه وعقله هو الله الذي لا إله إلا هو والشيخ كله أثر من آثار الله تعالى»[3].

٨- «المعرض عن طريقتنا على خطر من دينه».

---

(١) محمد عبدالله الخالدي النقشبندي، البهجة السنية في آداب الطريقة العلية الخالدية النقشبندية، طبعة بالأوفست، إستانبول، مكتبة الحقيقة، ٢٠٠٢، ص ٥.

(٢) النقشبندي، المرجع السابق، ص ٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨.

٩- «إمامنا وقدوتنا إلى الله تعالى بهاء الحق والحقيقة والدين الشيخ محمد الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند»[١].

١٠- «قال الشاه نقشبند طريقنا أقرب الطرق، فالمحروم من يدخل هذا الطريق ولا يستقيم».

١١- «ومن خواص هذا الطريق أيضاً أنه يكون في ابتدائها الحلاوة والوجدان وفي انتهائها عدم اللذة والفقدان الذي هو من لوازم اليأس، بعكس سائر الطرق إذ في ابتدائها عدم اللذة والفقدان وفي انتهائها الحلاوة والوجدان..»[٢].

١٢- «الطريقة العلية السالمة من كدورات جهلة الصوفية هي الطريقة النقشبندية»[٣].

١٣- «الطريقة النقشبندية طريقة الصحابة على أهلها ولم يزيدوا ولم ينقصوا، وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهراً وباطناً بكمال الالتزام للسنة، والعزيمة وتمام الاجتناب عن البدعة، والرخصة في جميع الحركات والسكنات في العادات والعبادات والمعاملات مع دوام الحضور بالله تعالى، على طريق الذهول والاستهلاك، فهي طريق الانصباغ والانعكاس بكمال ارتباطهم حباً، مع هذه المجاهدة الزكية المستورة، يستوي في استفاضتها الشيوخ والصبيان، وفي إفاضتها الأحياء والأموات، ومندرج

---

(١) النقشبندي، المرجع السابق، ص ١٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣.

إنهائها في ابتدائها، وابتداؤها انتهاء غيرها لما فيها من انجذاب المحبة الذاتية مما فضل به واسطتها الصديق الكبير، ولها أصلان أصيلان من أعطيهما أعطي كل شيء: كمال اتباع النبي ومحبة الشيخ الكامل»[1].

١٤- «النقشبندية مبناها على اتباع السنّة السنيّة وقمع البدعة الردية، مؤسسها بالتهذيب والتنقيح أفضل الأمة بعد الأنبياء على التحقيق أبو بكر الصديق... ومشيدها شيخ مشايخ الإسلام بهاء الحق والحقيقة والدين النقشبندي الإمام»[2].

١٥- الطريقة النقشبندية مبناها على التصرف وإلقاء الجذبة المقدمة على السلوك من المرشد الداخل تحت وراثته ﷺ في قوله «ما صبَّ في صدري شيئاً إلا وصببته في صدر أبي بكر الصديق وهو واسطة هذا العقد ومؤسس هذا المجد»[3].

فالمطلوب:

تصحيح المعتقدات على وفق عقائد أهل السنة والجماعة.

العلم بالأحكام الشرعية من الفرض والواجب والسنة والمندوب والحلال والحرام والمكروه والمشتبه، المذكورة في علم الفقه.

العمل بمقتضى هذا العلم.

سلوك طريق الصوفية[4].

---

(١) النقشبندي، المرجع السابق، ص ١٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص١٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٦.

رجال الطريقة النقشبندية وأسيادها ومن أخذ عنهم

- الشيخ محمد البخاري المعروف بعلاء الدين العطار.
- شاه نقشبند الشيخ محمد الأويسي البخاري.
- ميركلال.
- الشيخ محمد السماسي.
- علي الرامتيين.
- الشيخ محمود الأنجيرفغنوي.
- عارف الريوكري.
- عبد الخالق الغجدواني.
- الشيخ يوسف الهمذاني.
- أبو علي الغارمدي.
- أبو الحسن الخرقاني.
- أبو يزيد البسطامي.
- عن ناطق الإمام جعفر الصادق عن والد أمه قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.
- سلمان الفارسي.
- عن أفضل الأئمة خليفة الرسول ﷺ أبي بكر الصديق.
- عن الرسول ﷺ[1].
- الروذ باري، والكرخي، والسري السقطي، والأئمة من الإمام علي الرضا، والكاظم، والصادق، والباقر، وزين العابدين، والامام

---

(١) النقشبندي، المرجع السابق، ص ١٩.

الحسين، وأمير المؤمنين، والرسول ﷺ ، وهذه النسبة تسمى سلسلة الذهب[1].

آداب الطريقة

١- من دخل هذه الطريقة وهو متزوج فلا يطلق أو أعزب فلا يتزوج حتى يكمل.
٢- أن لا يصرح في مباح أصلاً فإنه تضييع للوقت[2].
٣- العمل بالأحكام الشرعية.
٤- العمل بمقتضى هذا العلم.
٥- السلوك في طريق التصفية والتزكية المختصة بالصوفية الكرام[3].
٦- الإقبال على الطريق وعدم الالتفات إلى غيرها.
٧- التوبة إلى الله من كل زلة.
٨- الاجتهاد في إرضاء الخصوم ورد الحقوق[4].
٩- الخروج عن حب المال والجاه[5].
١٠- الإعراض عن الدنيا إعراضاً كلياً[6].
١١- الصمت وقلة الكلام فلا يتكلم إلا عن ضرورة[7].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣١.
(٣) النقشبندي، المرجع السابق، ص ٢٥.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٥.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢٦.
(٦) المرجع نفسه، ص ٢٧.
(٧) المرجع نفسه، ص ٢٨.

١٢- لو وصل إلى أي محل وصل لا يرى نفسه إلا في أول قدم من الطريق.

١٣- لو نال من السلوك أعلى المراتب لا يرى نفسه إلا أقل من فرعون نفسه بمئة مرة.

١٤- الابتعاد عن أماكن المعصية، وعدم النظر إلى وجوه العصاة لأنه يورث قساوة القلب عكس رؤية أهل الخير والصلاح[١].

١٥- عليك بالعمل وإياك وشقشقة اللسان بالكلام بالطريق دون التخلق بأخلاق العلماء[٢].

الشرائط والآداب مع الشيخ

١- لا يعترض في القلب على أفعال الشيخ.

٢- أن يظهر الخواطر خيراً أو شراً لشيخه ليعالجه، فإن الشيخ كالطبيب فإذا حصل له الاطلاع على أحوال المريد فإنه يتوجه إلى إصلاحه ورفع أمراضه[٣].

٣- الصدق في الطلب، فلا تغيره المحن والشدائد، ولا يفتره العزل والمكايد، والمحبة المفرطة الصادقة لشيخه أكثر من نفسه وماله وولده، معتقداً أنه لا يحصل له المقصود من الملك المعبود إلا بتوسط شيخه.

٤- أن لا يقتدي بجميع أفعال شيخه العادية إلا أن يأمره بها، بخلاف

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(٣) النقشبندي، المرجع السابق، ص ٤٠-٤١.

الأقوال لأن الشيخ قد يعمل بعض الأعمال بحسب مقامه وحاله وذلك العمل يكون على المريد سماً قاتلاً.

٥- المبادرة بإتيان ما أمره به من غير تأويل ولا تسويف فإنهما من أعظم القواطع.

٦- العمل بما لقنه شيخه من ذكر أو توجه أو مراقبة وترك جميع الأوراد غير المأثورة.

٧- أن يرى نفسه أحقر من جميع الخلائق، ولا يرى لنفسه حقاً على أحد، ويخرج من عهدة حقوق غيره بالأداء والتوفية، وقطع العلائق عما سوى المقصود[١].

٨- عدم الخيانة لشيخه في أمر من الأمور، واحترامه وتعظيمه على أقصى الوجوه، وتعمير قلبه بالذكر الملقن به، وطرد الغفلة والخواطر.

٩- أن لا يكون مراده في الدنيا والآخرة غير الذات الأحدية، ولو من حال، أو مقام، أو فناء، أو بقاء، وإلا فهو طالب لكمال نفسه وأحوالها، فينبغي أن يكون كالميت بين يدي الغسال، وأن لا يرد كلام الشيخ وإن كان الحق مع المريد، بل يعتقد أن خطأ الشيخ أقوى من صوابه، ولا يشير للشيخ بشيء إن لم يسأله.

١٠- أن يكون منقاداً مستسلماً لأمر الشيخ ولمن يقدمه عليه من الخلفاء والمريدين، وإن كان ممن عملهم أقل من عمله الظاهري.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤١.

١١-أن لا يظهر حاجته إلى أحد غير شيخه فإن لم يكن شيخه حاضراً وحصل له الضرورة ليسأل من صالح سخي متقٍ.
١٢- أن لا يغضب على أحد لأن الغضب يميت نور الذكر، وأن يترك المناظرة والمباحثة بالجدال مع طلبة العلم لأن المناظرة تورث النسيان والكدورات، وإذا وقع منه الغضب أو المباحثة مع أحد يستغفر ويطلب منه العذر، وإن كان هو محقاً، ولا ينظر إلى أحد بنظر الحقارة بل من رآه يحسبه أنه الخضر(ع)، أو ولي من أولياء الله تعالى الكرام فيطلب منه الدعاء[1].

الآداب المطلوبة من المريد مع الشيخ

١- أن يكون اعتقاده مقصوراً على شيخه معتقداً أنه لا يحصل مطلوبه أو مقصوده إلا على يد هذا الشيخ.
٢- أن يكون مستسلماً منقاداً راضياً بتصرفات الشيخ يخدمه بالمال والبدن.
٣- أن يسلب اختيار نفسه باختيار الشيخ في جميع الأمور.
٤- الفرار من مكاره الشيخ... وكراهة ما يكره الشيخ[2].
٥- عدم التطلع إلى تعبير الوقائع والمنامات والمكاشفات.
٦- إن سأل أحد الشيخ عن مسألة فإياه والمبادرة بالجواب في حضرة الشيخ.

---

(١) النقشبندي، المرجع السابق، ص ٤١-٤٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٢.

٧- غض الصوت في مجلس الشيخ.
٨- معرفة أوقات الكلام معه.
٩- كتمان أسرار الشيخ.
١٠- لا يكتم شيئاً... مما وهبه الله عن الشيخ.
١١- أن لا ينقل من كلام الشيخ عند الناس إلا بقدر أفهامهم وعقولهم.
١٢- إذا حصلت العقيدة بالشيخ يقول عنده جئت إليكم لطلب معرفة الله تعالى، وبعد قبول الشيخ لا يلتمس شيئاً بل يخدمه بالميل والرغبة حتى يحصل له القبول التام عند الشيخ.
١٣- أن لا يتحمل أمانة تبليغ سلام الغير إلى الشيخ(١).
١٤- أن لا يتوجه إلا لما أراده الشيخ.
١٥- أن لا يتوضأ بمرأى من الشيخ، ولا يرمي البزاقة والمخاطة في مجلسه، ولا يصلي النوافل في حضوره بل معه.
١٦- أن يبادر بإتيان ما أمره به الشيخ بلا توقف أو إهمال ولا تأويل(٢).

أنواع المشايخ

الشيوخ الثلاثة عندهم:

شيخ الخرقة.

شيخ الذكر.

شيخ الصحبة.

---

(١) النقشبندي، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢) المرجع نفسه.

«والشيخ الحقيقي هو شيخ الصحبة، لأنه الممد للمريد بحاله دون واسطة شيء آخر».

أما شيخ الخرقة، فأولاً يسري حاله في الخرقة ثم يسري في المريد، فخرقته التي أمدّت المريد، وكذلك شيخ الذكر، ذكره الذي أمد المريد[1].

وشيخ التعليم هو أستاذ الشريعة ودليل الطريقة، بخلاف شيخ الخرقة، فينبغي أن تكون مراعاة آداب شيخ التعليم أكثر وهو باسم المشيخة أحق»[2].

ومن الشروط المطلوبة كي يصبح أحدهم شيخاً، الآتي: «من لم يصح له نسب إلى القوم فهو لقيط في الطريق لا أب له ولا يجوز له التصدي والجلوس لإرشاد المريدين، إلا بعد أخذه بآداب الطريق من شيخ كامل، مجمع على جلالته وخبرته في الطريق، ثم يؤذن له صريحاً بأن يرشد ويلقن ويلبس الخرقة على شروط ما كان عليه السلف»[3].

وبعد وفاة الشيخ بهاء الدين، انتشرت الطريقة النقشبندية وحلّت مكان اليسوية شيئاً فشيئاً مع الأخذ في الاعتبار أن الأسس والقواعد العامة للنقشبندية كانت نفسها في اليسوية[4].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٢) النقشبندي، المرجع السابق، ص ٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦.

(٤) كوبريلي، المتصوفة الأولون، المرجع السابق، ص ١٨٩.

٢- البكتاشية: حاجي بكتاش (٦٤٥-٧٣٨هـ/١٢٤٧-١٣٣٧م)

ولد محمد الحاج بكتاش الولي عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م في نيسابور، من أعمال ولاية خراسان، تعلم منذ طفولته عند الشيخ لقمان أفندي الذي كان خليفة الشيخ أحمد يسوي.

كان والده محمد الحاج بكتاش حاكماً على المقاطعة، ورفض حاجي بكتاش الرياسة من بعده، وفضّل اللجوء إلى التعبّد[1].

فاختلى أربعين عاماً، مؤثراً العزلة في إحدى الصوامع، ولم يخرج منها. بعدها التقى الشيخ أحمد يسوي «واكتسب منه الفيوضات المعنوية وأشار عليه مرشده بالشخوص إلى بدخشان»، ثم أشار عليه «أستاذه ومرشده أحمد يسوي، بالسفر إلى بلاد الروم، وأثناء الطريق مرَّ على النجف وزار مقام الإمام علي بن أبي طالب، ومنها إلى مكة فالمدينة المنورة، ثم القدس فالخليل، فدمشق وحلب ثم إلى بلاد الروم»[2].

وفي آسيا الصغرى (بلاد الروم) اتخذت الناس من الأماكن التي نزل فيها «مقامات»، ثم زاره السلطان العثماني أورخان، وهو ثاني سلاطين الدولة العثمانية، ودعاه السلطان إلى حضور احتفال تأسيس جيش الانكشارية، وينقل أن حاجي بكتاش هو الذي أطلق عليهم هذا الاسم[3].

---

(١) أحمد سري بابا، الرسالة الأحمدية في تاريخ الطريقة العلية البكتاشية، مصر: مطبعة الشرق، ١٩٣٩، ص ٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨.

بعدها عمد حاجي بكتاش إلى إرسال الخلفاء والنقباء إلى مختلف الأنحاء وجعل لكل منهم إقليماً[١].

يقول أحمد سري بابا، شيخ تكية سيدنا أبي عبدالله المغاوري في تعريف البكتاشية: «الطريقة العلية البكتاشية هي طريقة آل البيت الأطهار، وهي مؤسسة على أوامر الشريعة السمحاء والتزام السنّة السنيّة».

ويضيف: «ولطريقتنا العلية آداب وأصول خاصة بها في كيفية تهذيب النفس وتثقيفها وتعليمها وواجباتها الدينية والدنيوية»[٢].

أما أصولها التي انحدرت منها: فيقول: «والطريقة العلية البكتاشية قد انحدرت أصولها من سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده إلى أن وصلت إلى مشايخنا الكرام كابراً عن كابر»[٣].

مراتب الطريقة البكتاشية

للطريقة البكتاشية عدة مراتب هي:

١- **العاشق**: وهو الذي يحب الطريقة ويتعلق بمبادئها وتسيطر عليه روح البكتاشية وله رغبة في الانضمام إليها.

٢- **الطالب**: هو من يعلن رغبته في الانضمام ويرشحه الشيخ.

٣- **المحب**: هو الذي انتسب إلى هذه الطريقة.

---

(١) أحمد سري بابا، المرجع السابق، ص ٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣.

٤- **الدرويش**: الذي يتبحر في آداب الطريقة وعلومها، ويلم بأركانها ومبادئها، ويهب نفسه للخدمة العامة فيها.

٥- **البابا**: هي درجة المشيخة ولا يصل إليها الدرويش إلاّ بعد مدة طويلة، حيث يكون قد عرف الرموز الصوفية وأحاط بها.

٦- **الددة**: وهو الخليفة، ولا يمنح هذه المرتبة إلا شيخ المشايخ، ويكون رئيساً لأحد الفروع.

٧- **الددة بابا**: شيخ المشايخ، وينتخب من بين الخلفاء، وهو المدير العام لشؤون الطريقة في العالم، وهو الذي يعين الباباوات وله حق عزل المشايخ[١].

التكية البكتاشية

هي عبارة عن ضيعة كبيرة، تضم عادة قصراً فخماً، وقبوراً مزخرفة، يقيم بها الدراويش بشكل دائم، وتضم التكية في الأغلب المواشي، كما تحصل على الإتاوات والأرزاق[٢] من المنتسبين إلى الجماعة في البلدة حيث توجد التكية، حيث يفرض قربان على كل زائر، عليه أن يقدمه للتكية[٣].

أما طريقتهم في التصوف، فهي تتركز على التقشف والنظام الصارم والمساواة بين الأديان[٤].

---

(١) عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الكويت: مكتبة ابن تيمية، ط٢، ص ٤١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤١٦.

(٤) عبد المنعم حفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ٩٤- ٩٥.

واعتبرت البكتاشية الطريقة الأهم التي جاءت بعد الطريقة اليسوية[١].

٣- الكبراوية

وهي تنتسب إلى نجم الدين كبري(٥٤٠-٦١٨هـ/ ١١٤٥-١٢٢١م)، ولد في خيوة في خوارزم، وقام بعدة رحلات إلى مصر وأذربيجان وإيران، حيث تعلم الدراسات الصوفية[٢].

يعتبر نجم الدين كبري من كبار المنظرين الصوفيين، ولديه عدة مؤلفات في التصوف[٣].

بنى خانقاه في خوارزم، حيث قصده العديد وتتلمذوا على يديه، ومنهم مجد الدين البغدادي(ت٦١٦هـ/ ١٢١٩م)، والشاعر الفارسي فريد الدين العطار (ت٦٢٢هـ/ ١٢٢٥ م).

واستقرت الكبراوية حول ضريح مؤسسها، الذي ألحق به العديد من الأبنية والمؤسسات[٤].

وضع الشيخ نجم الدين كبري عشرة مبادئ تؤدي إلى نيل رضا الله تعالى:

١- التوبة الصادقة والحب لله.

٢- الزهد في الدنيا.

---

(١) كوبريلي، المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٢) ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣) بوريبوي أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٤) ترمنغهام، المرجع السابق، ص ١٠١.

٣- التوكل على الله.

٤- القناعة.

٥- العزلة.

٦- ملازمة الذِّكر.

٧- الوجد إلى الله.

٨- الصبر على الآلام والتغلب على الشهوات.

٩- التأمل.

١٠- الرضا[١].

وتوسعت تعاليم الشيخ نجم الدين كبري لتصل من وسط آسيا إلى خراسان، والهند، وإلى غرب آسيا[٢] وتفرعت من الكبراوية عدة فرق هي:

الفردوسية.

النورية.

الركنية.

الحمدانية.

الاغتشاشية.

النوربختشيه[٣].

---

(١) بوريبوي أحمدوف، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧١.

(٣) ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، المرجع السابق، ص ١٠١-١٠٣.

٤- المولوية

تنسب إلى جلال الدين الرومي (٦٠٤-٦٧٢هـ/ ١٢٠٧-١٢٧٣ م). وهو من أبرز شعراء التصوف الفرس[١].

كان جلال الدين من بلخ، وعاش في قونية، وأثناء وجوده هناك جاء إلى المدينة «صوفي عجيب هو شمس تبريزي ليخطب في أهلها»، وبلغ تأثر جلال الدين به أن دفعه ذلك إلى تأسيس المدرسة المولوية التي لا تزال قونية عاصمتهم إلى اليوم.

وضع جلال الدين مئات القصائد، و«لتصبح هذه القصائد أسمى ما قيل من الشعر الديني من عهد المزامير (مزامير داوود)، وكتابه اعتبر ملحمة دينية تفوق في حجمها كل ما خلفه هوميروس، وفيها مفردات بارعة الجمال»[٢].

يقول فيليب حتي: «وقد خرج جلال الدين الرومي على المأثور من تقاليد الإسلام فأقام للسماع (الموسيقى) مكاناً في مراسم طريقته الصوفية، وظلت زعامة هذه الطريقة متوارثة في أبناء جلال الدين وأحفاده، وكان أن تمتع الزعيم منهم بشرف تقليد السلطان الجديد من خلفاء بني عثمان السيف»[٣].

---

(١) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط ٣، ص ٢٢٤.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، بيروت: دار الفكر، د. ت، ج ٣، ص ٣٤٩ و٣٥٠.

(٣) فيليب حتي، تاريخ العرب، المرجع السابق، ص ٥٠٩.

وقد عرف جلال الدين بالمولوي، وإليه تنسب طرق الدراويش المولوية (الدراويش الراقصون).

وضع من أبيات الشعر حوالى خمسة وعشرين ألفاً، وهي بمعظمها غزليات صوفية، بالإضافة إلى القصص والمواعظ والأمثال[1].

حتى قال عنه ترمنجهام: «متصوف زاهد يحوّل رؤاه إلى شعر فارسي ملهم»[2].

ولا تزال الطريقة المولوية أو الجلالية، موجودة في كل من سوريا وتركيا إلى اليوم، حيث يشاهد الدراويش المولوية في المناسبات وبعض الاحتفالات التي يشاركون فيها[3].

ورد في الموسوعة الصوفية حول أسلوب جلال الدين الرومي في نظمه للشعر الصوفي، الآتي: «وأسلوب الرومي في أدبه الصوفي: قوي البنيان، فيّاض الخيال، بارع التصوير، يوضح المعنى الواحد في صور مختلفة، ويسوق المثل إثر المثل، وبحور الشعر تطاوعه حتى ينظم حول القصة القصيرة مئات الأبيات ويصل بها ما يشاء من الآراء والنصائح والعظات والعبر»[4].

---

(١) عبد المنعم حفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ٣٠٧.

(٢) ترمنجهام، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٣) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، المرجع السابق، ٢ ٢٢٧.

(٤) حفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ٣٠٨-٣٠٩.

الطريقة القادرية

مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٧٠-٥٦٢هـ/ ١٠٧٧-١١٦٦م)، وهو من جيلان في طبرستان، درس على حماد الدباس، وتفقه على مذهب أحمد بن حنبل[١].

أقام في مدرسته التي اتخذ منها رباطاً حتى مات، وقصده المريدون من كافة المناطق والبلدان[٢].

يعرّفه ابن كثير بقوله: «ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي... دخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على أبي سعيد المخرمي الحنبلي، وقد كان بنى مدرسة ففوضها إلى الشيخ عبد القادر، فكان يتكلم على الناس بها، ويعظهم، وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وكان له سمت حسن، وصمت، غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان فيه تزهد كثير، وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً، وقد صنف كتاب الغنية وفتوح الغيب، وفيهما أشياء حسنة، وذكر فيهما أحاديث ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ... دفن بالمدرسة التي كانت له»[٣].

انتقلت مدرسة الجيلاني من بغداد إلى آسيا الوسطى عن طريق التجار، وظهرت في فرغانة في القرن الثاني عشر للميلاد.

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(٢) عبد المنعم حفني، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧، ص ١٩٩.

لعبت دوراً بـارزاً في دخول الإسلام وترسيخه في منطقة القوقاز، ولديها العديد من التكايا المنتشرة إلى الشمال من أذربيجان والداغستان، وقازاقستان، وقيرغيزيا.

وطريقته توجد على شكل جماعات مرتبطة بالمشايخ الذين يعمدون في التكايا إلى الإنشاد عن طريق الغناء، والموسيقى، والرقص.

وبالتالي هي عكس النقشبندية في عدم التطرف، حيث تميزت القادرية بالتعصب، ومعاداة الأجنبي، ورفض الصلح مع الملحد[1].

لقب الشيخ عبد القادر الجيلاني عند المتصوفة بـ: «شيخ الكل والعارف الرباني، والمعدن الصمداني، وباز الله الأشهب، محيي الدين»[2].

والتصوف عنده يصل إلـى «الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات»، بل عليه أن يصل إلى خصال الأنبياء: كالصبر الذي تحلى به أيوب(ع).

وعلى الصوفي الزهد في الدنيا «بحيث تأتيه الأشياء فلا يريدها ولا يبغضها».

وعلى أتباعه الالتزام بالآداب الشرعية، سواء في السلوك مع المشايخ (مشايخهم) أو فيما بينهم، ومن خلال الذكر والمجالس وخدمة الإخوان[3].

---

(١) هدى درويش، دور التصوف، المرجع السابق، ص ١٠٣- ١٠٤.

(٢) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٦.

ويعتبرون أن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة وعلى المريد التزام الكتاب والسنّة حرفياً.

«والجيلاني لا يشتط في التنظير لطريقته، ويحصرها في عدد من المقامات يربط بينها وبين المعروف عند أهل السنة منها: وعلى المؤمن أن يكون في سائر أحواله على ثلاثة أشياء:

أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدرٌ يرضى به، والالتزام بكتاب الله وسنة نبيه»[1].

الفضائل عنده

١ – مجاهدة النفس عن هواها.

٢– التوكل على الله.

٣– حسن الخلق مع الناس.

٤– التذكر لله.

٥– الصبر على قضائه.

٦– الرضا بقدره.

٧– الصدق في كل أمره[2].

يذهب الجيلاني إلى القول أنه لا سبيل إلى دخول ميدان

---

(١) عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

التصوف إلا عن طريق الشرع، فهو يعتبر أن حدود التصوف هي حدود الشريعة وعقيدة السلف[1].

والفروض الواجبة من الله تعالى على العباد عند الجيلاني، وذلك بعد التمسك بالكتاب والسنة ومذهب السلف، هي:

١- **العلم**: «وهو أول فرض فرضه الله تعالى على العباد والواجب تحصيله»[2].

٢- **العمل**: هو لب العلم فبدونه يبقى العلم مجرد قشور، يقول الجيلاني في ذلك: «ويلٌ واحد للجاهل، كيف لم يعلم... وويلٌ للعالم سبع مرات، لأنه علم وما عمل، فارتفعت عنه بركة العلم وبقيت عليه حجته»[3].

٣- **التوبة**: وهي أولى مراتب السالكين نحو الصوفية، هي عند الجيلاني والصوفية بشكل عام أصل كل خير وفروعه، ومفتاح القرب إلى الله تعالى[4].

أما شيخ الطريقة عند القادرية، فهو المرشد الروحي، وقد حصّل الطريق من شيخ غيره وبالتسلسل عن الرسول(ص)[5].

ويقول الجيلاني: إنه لا بد لكل مريد من شيخ فهم الطريق إلى

---

(١) يوسف زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية، مصر: دار الجيل، ط ١، ١٩٩١، ص ٢١.

(٢) يوسف زيدان، المرجع نفسه، ص ٢٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣١-٣٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٤.

الله تعالى، وهذا الشيخ هو الدليل على الخالق والباب الذي يدخل منه إليه، فالمريد الذي ينفرد برأيه ولا يصحب شيخاً فقد ضلّ وكان له الشيطان قائداً وشيخاً[1].

وبالتالي فالمطلوب من المريد تجاه الشيخ هو:

الطاعة الظاهرة والباطنة[2].

الجلوس مع الشيخ على بساط الأدب.

إطلاع الشيخ على احواله.

عدم اتهام الشيخ بإساءة قلبية.

التهيؤ الدائم لخدمة الشيخ[3].

الصدق في الصحبة لله تعالى.

الصبر على خشونة الشيخ[4].

وهذا لا يكفي، بل على المريد أن يكون على علاقة جيدة مع غيره من المريدين، وهي آداب الإخوان، فالطريق الصوفي له خطان: أحدهما عمودي وذلك عبر الطاعة للخالق، والآخر أفقي ويكون بمعاملة الخلق بالآداب[5].

---

(١) يوسف زيدان، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ٥٣.

وصفات آداب الإخوان هي:

الفتوة والإيثار والصفح عن العثرات.

التواضع والموافقة للإخوان وترك مخالفتهم ومناظرتهم.

التعامي عن عيوبهم.

المحبة لهم والشفقة عليهم.

أن لا يريد المريد لنفسه حقاً على واحد من إخوانه[١].

وتشدّد الطريقة القادرية على ضرورة مجاهدة النفس، وهي تكون عبر:

قطع مألوف العادات.

المخالفة، مخالفة الهوى[٢].

الرياضة، رياضة النفس وتكون عبر الجوع والصمت والسهر والخلوة[٣].

محاسبة النفس ومراقبتها[٤].

ولأهل المجاهدة في هذه الطريقة عشر خصال هي:

١- ترك الحلف بالله إطلاقاً.

٢- اجتناب الكذب في الجد والهزل.

٣- عدم إخلاف الوعد.

---

(١) يوسف زيدان، المرجع نفسه، ص ٥٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٧٠.

٤- الحذر من إيذاء الخلق ولعنهم.

٥- تحمل الظلم من الخلق واجتناب الدعوة عليهم.

٦- حسن الظن بأهل القبلة.

٧- كف الجوارح عن النظر إلى المعاصي.

٨- رفع المؤونة عن الخلق والاستغناء عنهم.

٩- قطع الطمع عن النفس والانقطاع إلى الله تعالى.

١٠- التواضع[١].

والتواضع عند الجيلاني هو مخ العبادة وأصل الطاعات وشرف الزاهدين المتنسكين[٢].

أما حسن الخلق عند الجيلاني، فهو أفضل المناقب ولا يتركه إلا منافق صاحب هوى، وهو فريضة في حق العارف كالتوبة في حق الجاهل[٣]، ويعتبر الجيلاني حسن الخلق علامة من علامات الطريق التي تظهر معرفة السالك لربه[٤].

وللجيلاني قول مأثور حول القرب إلى الله تعالى

«يا غوث الأعظم.... قل لأحبابك.

وأصحابك.

(١) يوسف زيدان، المرجع السابق، ص ٧٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٨٦.

من أراد منكم صحبتي.

فعليه بالفقر.

ثم فقر الفقر.

ثم الفقر عن الفقر.

فإذا تمّ فقرهم، فلا إثم إلا أنا»[1].

والجدير ذكره، أن عوامل عدة ساهمت في انتشار القادرية بعد وفاة مؤسسها وهي:

١- ترك الإمام الجيلاني ذرية كثيرة، فقام أولاده وأحفاده من بعده بإحياء الطريقة.

٢- أصول هذه الطريقة كان واضحاً وسهلاً أنها من الكتاب والسنّة[2].

٣- كان الجيلاني قد لقّن هذه الطريقة للعديد من الصوفية والعديد منهم بايعوه[3].

٤- توزع الطريقة القادرية وانتشارها وحصولها على نوع من اللامركزية، وخصوصاً بعد نهاية مركزها في بغداد عام (٦٥٦ ه/ ١٢٥٨ م) والغزو المغولي، لتتحول الفروع إلى أصول وتساهم في انتشار الطريقة والحفاظ عليها بشكل أكبر وأوسع[4].

---

(١) يوسف زيدان، المرجع السابق، ص ١١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧٧.

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٧٨.

كما أنه كان يغلب عليها وعلى دعاتها الاتجاه العملي التربوي[1].

وهكذا ظهرت معنا الطرق الصوفية الأساسية التي عرفتها بلاد ما وراء النهر، هذه الطرق الصوفية كانت نتاج نوع من التمازج الثقافي بين الترك والفرس والعرب، حيث ولدت أسماء لرجال من المتصوفة كانت لها القدرة على السيطرة على مشاعر العامة والتحكم في عقولهم. وقد يكون ذلك وليد الحالة الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي عرفتها تلك البلاد، حيث إن العامة كانت في معظمها من الطبقة الفقيرة - كما يبدو - فكانت هذه الطبقة تبحث عن أمان روحي، واطمئنان نفسي، وجدته بالمتصوفة المتقشفين ذوي الطبائع السمحة، المتميزين بالتواضع والمحبة.

هكذا تحول رجال الصوفية إلى حالة لا يمكن تجاوزها، دفعت الحكام إلى التقرب منهم واسترضائهم، لإمرار غاياتهم وأهدافهم السياسية من ناحية، ولكسب العامة إلى جانبهم من ناحية أخرى. فكان هذا العصر هو عصر رجال المتصوفة بامتياز.

(١) التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، المرجع السابق، ص ١٩.

الخاتمة

كانت بلاد ما وراء النهر بلاداً غنية بأرضها وسكانها، ازدهرت فيها كبرى مدنها، كسمرقند وبخارى، التي كانت تقع على خط طريق الحرير، ذلك الخط الذي يربط أسواق الصين بوسط وغرب آسيا وصولاً إلى أوروبا.

هذه البلاد التي عرفت، نظراً إلى موقعها في وسط آسيا، تلاقي مختلف الثقافات والديانات الشرقية والغربية، دخلها الإسلام منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وخضعت للحكم العربي الإسلامي منذ زمن الأمويين، وقد أثرَّ انتشار الإسلام بين شعوبها مما ساهم في خلق ثقافة وفكر من خلال التصوف، انتشر بين أهلها بشكل واسع.

فقد كانت الدعوة إلى الأمان والسكينة وللمزايا الأخلاقية التي حملتها الصوفية، أن دفعت بالعامة إلى المسارعة في تبني الطرق الصوفية وتقديس رجالاتها، هذا ما جعل الحكام يتقربون من رجال الصوفية، لكسب ود العامة من ناحية، ولتأييد قراراتهم التي يتخذونها ولدعمهم في حروبهم.

فكان هؤلاء المتصوفة أصحاب المكانة والسطوة والنفوذ في تلك البلاد.

ومن بلاد ما وراء النهر انتقل التصوف عبر الدراويش الأتراك المتنقلين إلى بلاد الهند جنوباً والأناضول وبلاد الشام غرباً.

ومن أبرز الشخصيات الصوفية التي كان لها الأثر الأبرز في بلاد وسط آسيا، العلامة يوسف الهمذاني، الذي يعتبر مؤسس المدرسة الصوفية في وسط آسيا، وفي هذه المدرسة تخرّج عدد من كبار رجال المتصوفة، منهم عبد الخالق غيجدوفاني (وهو خط فارسي)، وأحمد يسوي (وهو خط تركي)، ليستمر التصوف عبرهما لتظهر فرق صوفية فرعية حلّت مكان مدرستيهما، وتستمر إلى وقتنا الحاضر، متجسدة من خلال النقشبندية والبكتاشية والمولوية وغيرها من الفرق الصوفية التي وعلى الرغم مما يشهده إعلامنا اليوم من تطور علمي وتكنولوجي، ورغم التطرف الديني، إلّا أن هذه الطرق الصوفية لا تزال تجد أرضاً خصبة في عالمنا العربي والإسلامي، كما في تركيا ووسط آسيا، حيث لا تزال الطرق الصوفية تمتلك القدرات البشرية والمادية، وإن كانت أضعف من قبل.

المصادر والمراجع

أ- المصار العربية

- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٩.
- ابن تغري بردى، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣.
- ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، بيروت: منشورات دار ومكتبة الحياة، ١٩٩٢.
- ابن خرداذبة، **كتاب المسالك والممالك**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨.
- ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٠- ٢٠٠١.
- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٧٧.
- ابن رستة، **كتاب الأعلاق النفيسة**، طبع في مدينة ليدن، بمطبعة بريل، ١٨٩٣.
- ابن الطقطقي، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، تحقيق ممدوح حسن محمد، مصر: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٩.
- ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق حمزة أحمد عباس، أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٥.

- ابن كثير، **البداية والنهاية**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط٣، ١٩٩٤.
- ابن الوردي، **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، تحقيق أنور الزناتي، القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٨.
- الإصطخري، **كتاب مسالك الممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦١.
- البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق عبدالله أنيس الطبّاع، بيروت: دار النشر للجامعيين، ١٩٥٨.
- الثعالبي، **لطائف المعارف**، نشر دي يونغ (ليون ١٨٦٧).
- الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق احسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤.
- الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٤.
- السمعاني، **حيدر أبادة**، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط ١، ١٩٦٢.
- الطبري، **تاريخ الطبري**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٨.
- القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت، دار صادر د.ت.
- قدامة بن جعفر، **نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨.
- القلقشندي، **صبح الأعشا في صنعة الإنشا**، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، د.ت.

- المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجواهر**، بيروت: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠.
- المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٩٨٧.
- النرشخي، **تاريخ بخارى**، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، القاهرة: دار المعارف، ط٣.
- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، ١٩٩٥.
- اليعقوبي، **كتاب البلدان**، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، ١٨٩٣.

ب - المصادر المترجمة

- الجويني، **تاريخ فاتح العالم، جهانكشاي**، ترجمة محمد التونجي، دمشق: دار إعلام، ط١، ١٩٨٥.
- الهمذاني، **جامع التواريخ - تاريخ خلفاء جنكيز خان**، ترجمة فؤاد الصياد، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣.

ج - المراجع العربية

- إحسان إلهي ظهير، **التصوف: المنشأ والمصادر**، ط١، ١٩٨٦.
- إحسان بنت سعيد خلوصي، **الطريق إلى سمرقند**، دمشق: مطبعة هاشم، ط٢، ١٩٩٠.
- أحمد سري بابا، **الرسالة الأحمدية في تاريخ مصر**، مطبعة الشرق، ١٩٣٩.
- أحمد علي زهرة، **الصوفية وسبيلها إلى الحقيقة**، دمشق: دار نينوى، ٢٠١١.

- السيد الباز العريني، **المغول**، بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٦.
- بديعة محمد عبد العال، **النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الأتراك**، القاهرة: الدار الثقافية، ط ١، ٢٠٠٩.
- التفتازاني، **مدخل إلى التصوف الإسلامي**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٧٩.
- حافظ أحمد حمدي، **الدولة الخوارزمية والمغول**، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام**، بيروت: دار الجيل، ط ١٤، ١٩٩٦.
- زكي مبارك، **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق**، القاهرة: كلمات، د.ت.
- زهير حميدان، **أعلام الحضارة العربية الإسلامية**، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥.
- شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني**، القاهرة: دار المعارف، ط١٢.
- سعد بن محمد الغامدي، **الفتح الإسلامي لبلاد وادي السند**، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ٩، ١٩٨٨.
- صابر طعيمة، **التصوف والتفلسف**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٥.
- الصرفي، **تاريخ دول الإسلام**، القاهرة: الدار العالمية ط١، ١٩٨٦.
- عبد الرحمن عبد الخالق، **الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة**، الكويت: مكتبة ابن تيمية، ط٢.

- عبد الكريم عبد الغني قاسم، **المذاهب الصوفية ومدارسها**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٩٩.
- فاروق عمر فوزي، **الخلافة العباسية**، عمان: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٣.
- الشيخ فريد الدين آيدن، **الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها**، تركيا: العبر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- فيليب حتي، **تاريخ العرب**، بيروت: دار غندور،ط٩، ١٩٩٤.
- محمد أحمد درنيقة، **الطريقة النقشبندية وأعلامها**، بيروت: جروس برس، د.ت.
- محمد بن موسى الشريف، **علماء آسيا الوسطى بين الماضي والحاضر**، دون دار نشر ودون تاريخ.
- محمد بن الحسين النيسابوري، **طبقات الصوفية**، تحقيق مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨.
- محمد عبدالله الخالدي النقشبندي، **البهجة السنية**، طبعة بالأوفست، استانبول: مكتبة الحقيقة، ٢٠٠٢.
- محمد علي البار، **المسلمون في الاتحاد السوفياتي عبر التاريخ**، جدة: دار الشروق، ط١، ١٩٨٣.
- المشخناوي النقشبندي، **جامع الأصول**، المطبعة الوهبية، ١٨٨١.
- هدى درويش، **دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز**، مصر: عين للدراسات، ط١، ٢٠٠٤.

- يوسف زيدان، **الطريق الصوفي وفروع القادرية**، مصر، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١.

د- المراجع الأجنبية:

- Hasan Lutfi Shushud, *Masters of wisdomof central Asia*, Inner Traditions, Rochester, Vermont, Toronto, Canada.
- Itchal Weizman. *The Naqshbandiyya*, Routledge, London and New York, 2007.

هـ- المراجع المترجمة

- أرمينوس فامبري، **تاريخ بخارى**، ترجمة محمود أحمد الساداتي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، د.ت.
- بارتولد، **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ترجمة أحمد سليمان، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٦.
- بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ٢٠٠٢.
- بوريبوي أحمدوف، **العرب والإسلام في أوزبكستان**، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط٢، ١٩٩٩.
- جاستن مروذي، **تيمورلنك**، ترجمة مايا أرسلان، بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١١.
- سبنسر ترمنجهام، **الطرق الصوفيه في الإسلام**، ترجمة عبد القادر البحراني، بيروت: دار النهضة العربية، ط١، ١٩٩٧.

- ستانلي بول، **طبقات سلاطين الإسلام**، القاهرة: الدار العالمية ١٩٨٦.
- **سفارة إلى تيمورلنك**، ترجمة سهيل زكار، دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٥.
- فاسيلي بارتولد، **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت المجلس الوطني للثقافة، ط١، ١٩٨١.
- كي ليسترانج **بلدان الخلافة الشرقية**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٥.
- محمد فؤاد كوبريلي، **المتصوفة الأولون في الأدب التركي**، ترجمة عبدالله أحمد إبراهيم، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٢.
- موير سير وليام، **الخلافة صعودها وبزوغها وسقوطها**، بيروت: ١٩٦٣.
- ول ديورانت، **قصة الحضارة**، بيروت: دار الفكر، د.ت.

و - معاجم:

- الزركلي، **الأعلام**، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢.
- **المعجم الوسيط**، إستنبول، المكتبة الإسلامية، د.ت.